المكتبة الثقافية
١٢١

التاريخ والسير

الدكتور حسين فوزي النجار

الثقافة والإرشاد القومي
الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٥ نوفمبر ١٩٦٤

توزيع

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

طنطا ميدان الساعة

ت : ٢٥٩٤

تقديم

هذا بحث فى علاقة السير والتراجم بالتاريخ ومثل هذا البحث لا يحتاج إلى تقديم أو مقدمات لأنه يطرق موضوعه مباشرة ، ولا يحتاج إلى شرح يمهد به المؤلف للفكرة التى يقدمها لقرائه ، إلا أن يفصح عن سر اهتمامه بهذا البحث ، والأفكار التى راودته والتى يعنيها فى بحثه هذا .

ولعل الهواية هى التى حملتنى أولا على هذا البحث ، الهواية التى تشدنى دائما إلى البحوث التاريخية ، ولكن الهواية وحدها ، لا تصبح حافزا على الكتابة ، مالم تصحبها تلك الرغبة الملحة التى تحمل الباحث أو الكاتب على الاتصال بغيره من الباحثين فى ميدانه أو بجمهرة القراء ممن تعنيهم أمثال هذه البحوث أو يشاركون الباحث هوايته لها .

ولقد حملتنى تلك الرغبة الملحة على كتابة هذا البحث ودفعه إلى المتخصصين والقراء ، ذلك أننا ما زلنا نشق طريقنا بجهد وتوتر فى ميدان البحوث التاريخية ، ما كان منها منصبا على التاريخ ، وهو ما يستوعب غاية جهدنا ، أم متصلا بفلسفة التاريخ أو التاريخ كعلم له أصوله وطرائقه ومناهجه ، وهما مالم نعن بهما بعد ، وما زلنا نعيش فيهما عالة على الغرب ، وحتى فى هذا نكتفى بالقشور ولا تنفذ إلى اللب فتبدو الفكرة غائمة فى أذهاننا وتحملنا بعيدا عن جوهر الحقيقة التاريخية ومن ثم يأتى تحليلنا للواقعة التاريخية لجا سقيما منحرفا ، فإذا تجنبنا تلك المسالك الوعرة فى ميادين الفلسفة التاريخية أو مناهج البحث التاريخى الحديثة كانت روايتنا للتاريخ سردا مملا لأحداث ماضية لا تتبين فيها حكمة التاريخ أو القصد من دراسته .

ولا أحاول أن أكون متشائما فى نظرتى هذه ، وإنما أقرر حقيقة واقعة نهتديها لجهد شاق ما زال ينتظرنا فى ميدان الدراسات التاريخية ، حتى تتكون لنا شخصية تاريخية متميزة

مستقلة نستوحيها حقيقة الماضى دون تحيف ويكون طريقنا الحاضر قويما نسلكه على هدى و بصيرة .

وليس بحثى هذا إلا محاولة ضئيلة فى جانب من جوانب الدراسات التاريخية الفسيحة حملتنى عليه أفكار عديدة راودتنى عن ماهية السير والتراجم وعلاقتها بالتاريخ ، لا أدعى أننى جئت فيها بجديد وكل ما أستطيع أن أقوله ، إنها فيما عدا استشهادى بأفكار غيرى بعد مناقشتها والحكم لها أو عليها ، من تفكيرى وحدى ، لى فيها ثواب المجتهد وعذر المخطىء ، وما أبتغى من ورائها إلا أن ألج ميدانا ظل مغلقا أمامنا هو ميدان « فلسفة التاريخ » أرجو أن يلجه غيرى من الفلاسفة والمؤرخين وأرجو أن أسير فيه إلى الغاية المرجاة منه .

ولقد أخذت هذا الموضوع بالذات بعد أن نشطت لدينا كتابة السير والتراجم وأوفت على جهد المؤرخين فى كتابة التاريخ العام فما زال جهدنا فى هذا الميدان ضئيلا ، بل إن جهد الزملاء من المؤرخين فى كتابة السير التاريخية جهد ضئيل

إذا قيس بجهد غيرهم من الأدباء والكتاب فى هذا الميدان .

فإلى هؤلاء الأدباء والكتاب وغيرهم ممن استهوتهم كتابة السيرة التاريخية أسوق هذا البحث مؤملا أن يتقارب فى الكتابة عن الشخصيات التاريخية منهج المؤرخ العلمى ولمسة الأديب الفنان .

والله ولى التوفيق ؟

دكتور حسين فوزى النجار

المعادى فى { ١٦ صفر ١٣٨٤
٢٦ يونية ١٩٦٤

ما هو التاريخ ؟

التاريخ كما يرى « هيرنشو » هو مدونة العصور الخوالى وكتابها الحافظ لأخبارها أو هو التدوين القصصى لمجرى الأحداث العالمية كلها أو بعضها ، ومن قبله عرف ابن خلدون التاريخ بأنه « فن يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا » .

فالتاريخ إذن هو جماع أحوال البشر ما يقع منهم وما يقع عليهم ، ولعلنا نقول مع ربة التاريخ فى الأساطير اليونانية « إنى لا يند عنى شأن من شئون الإنسان » وهو مدونة الماضى لجلاء الحاضر وفى إطاره هذا لا يبلى قديمه فهو دائم الجدة والتجدد ، ذلك أن الإنسانية ترتبط بماضيها ارتباطا وثيقا ولا تستطيع من هذا الماضى فكاكا ، وهنا يلعب الزمن دوره الأزلى بحيث يبدو جامدا لا يتحرك ما لم تتواتر على مسرحه أحداث هى من صنع الإنسان أولا ، فالإنسان هو صانع التاريخ الفذ لا يفوقه

فى صناعته هذه صانع آخر، وهى من صنع الحياة ثانيا، فالحياة تفرض نفسها على إرادة الإنسان ، والصراع الذى يخوضه الإنسان فى معركة الحياة هو الدراما الخالدة على مسرح الزمن.

وقد تتجدد الصور والمناظر فى تلك الدراما ولكن شخوصها وتواتر أحداثها باقيان ، فالإنسان هو الإنسان ومعركته خالدة ما بقى مع الزمن والحياة ، ويحق لنا أن نقول مع المؤرخ الإيطالى المعاصر « بندتوكروتش » إن التاريخ كله هو تاريخ الحاضر فنحن لا نبغى حقا من دراسة التاريخ غير التعرف على الإطار الذى نعيش فيه ومعرفة أصوله ، ولا يتسنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره ما لم ندرك الماضى بالبحث فى حقيقة وجوده ، والواقع أن كل ما يتناوله التاريخ بالبحث حاضر موجود، أما ما مضى وانقطع وجوده فلا سلطان للتاريخ عليه، ولايستطيع المؤرخ فى هذا الميدان أن ينزع إلى الخيال والتصور فكل ما يند عن الحقيقة البلجاء الموثوق فى صحتها يبعد بعدا بينا عن الحقيقة التاريخية التى يستند إليها المؤرخ فى معرفة الصورة الحقيقية للماضى ، وتبدو هذه الصورة فى مخلفات الماضى المادية من آثار ومدونات ، وقد تدخل فيها التقاليد والأعراف التى سلمت من عوادى البلى ، وحتى هذه التقاليد والأعراف لايمكن

أن تدخل فى باب الحقيقة التاريخية ما لم يتعرف المؤرخ على أصولها وصورها الماضية وتطورها خلال سنى الماضى قصرت أم طالت حتى الوقت الحاضر ، على أن يستقيم هذا التطور مع الصورة التى ينتهى إليها فى الحاضر ، فهذه التقاليد والأعراف إذا ما تأكد المؤرخ من بقائها سليمة من عوادى البلى كانت ذخيرة طيبة لبحثه التاريخى ، وقيمتها ليست فى ذاتها ولكن فى دلالتها على الماضى وقد لا تكشف عن صورة الماضى بشكل مباشر ولكن بما تلقيه من أضواء تنير الطريق أمام المؤرخ .

ويبدو للنظرة العابرة أن الآثار والمدونات هى الحقائق الملموسة من مخلفات الماضى التى يعتمد عليها المؤرخ فى بحثه ، ولكن هذه الآثار والمدونات ليست قيمتها أو أهميتها فى ذاتها ولكن فى دلالتها على الماضى ، ولا تستطيع أن تظفر بالقيمة أو الأهمية التى تضفيها الحقيقة عليها مالم يلق المؤرخ عليها الأضواء التى تكشف عن حقيقة الماضى وهذا هو عمل المؤرخ الحقيقى فجهد المؤرخ أن يبين الحقيقة وسط ركام من الآراء والانفعالات والعواطف ، بل والإرادة التى صنعت تلك الآثار والمدونات التى تنم عن الوقائع أوتعبر عنها ، فإذا عمل المؤرخ على أن يتقصى جهد طاقته كل أسباب الخطأ واستطاع أن يستخلص الحقيقة

التاريخية نقية بلجاء ، فإن هذا وحده لا يكفى ، وإنما عليه أن يربط تلك الحقيقة بالنزعات التى ساقتها ، ذلك أن المؤرخ لا يبحث فى الوقائع والأحداث فحسب ولكن فى النزعات التى ساقتها ، فهى الحقيقة الأزلية للنفس البشرية ، وعمل المؤرخ أن يكشف فى النهاية عن النزعات البشرية التى تسوق الناس للعمل ، تلك النزعات التى تنم عن الطاقة الكبرى الكامنة فى روح الإنسان .

فالتاريخ وإن كان أحداثا أو وقائع غبرت إلا أن غايته هى جلاء الحاضر والكشف عن حقيقته ، ولا يتسنى ذلك مالم ينفذ المؤرخ إلى حقيقة النزعات التى تسوق الوقائع والأحداث حتى «تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا» كما يقول ابن خلدون ، والمؤرخ بهذه الصفة فيلسوف أكثر منه راوية فليس هناك من فضل للراوية إلا أن يقص ما يرى أو يسمع على علاته دون أن يعرض لما يسمع أو يرى ببحث أو تحليل ، والراوية فى هذا مصدر من المصادر التى يرجع إليها المؤرخ فى بحثه شأنه فى ذلك، شأن الآثار والمدونات التى تكون المادة الأساسية لبحث المؤرخ .

فالمؤرخ لا يقص خبر الأحداث فحسب بل يفلسفها ويتحرى

العلل فى وقائعها والنزعات التى تسوقها ليفسر على ضوئها أحداث الحاضر الذى يعيشه وليس فى مقدوره أن ينزع نفسه من حاضره، فكل ما يعنيه أن يتخذ من الماضى وسيلة لفهم نفسه وإدراك ما يحيط به ، وتلك هى فائدة التاريخ وجدوى عمل المؤرخ ، والمؤرخ غير الفيلسوف إذ بينما يقف المؤرخ أمام الواقعة التاريخية باحثا منقبا عن نشأتها ومجراها ودلالتها ، ترى الفيلسوف يطل على عالم التاريخ كله فى صورته الكونية العامة لا يعنيه العرض قدر ما ينفذ إلى الجوهر ، ولا يهتم بالواقعة قدر ما يهتم بالعلية ، فيغوص وراء الواقعة بحثا وراء الجوهر وسعيا وراء الكل ، ثم يضع مذهبا يفسر به الواقعة وكثيرا ما يعبر به المؤرخ عبورا هينا فلا يعنى به قدر ما يعنى بحقيقة الواقعة ذاتها وارتباطها بزمان ومكان معينين ، فإذا شده المذهب الفلسفى اختلت نظرته إلى التاريخ وجاوزته الموضوعية إلى الذاتية فى بحثه .

والتاريخ علم وإن كان لا يدخل فى مضمار العلوم التجريبية ، هو علم بحث وتمحيص ، بحث وراء الحقيقة وتمحيص لها . ولفظ التاريخ حتى فى معناه العلمى المجرد قد لا يعنى شيئا على الإطلاق إلا أن يكون بحثا أو طريقة للبحث ، وليس له موضوع ما لم يقترن بصفة تميزه كالتاريخ السياسى، ونعنى به تاريخ دولة من الدول

أو التاريخ الاجتماعى ونعنى به تطور أمة من الأمم فى حياتها ، وتاريخ الحضارة ونعنى به تقدم الحياة الإنسانية وتاريخ الفن وتاريخ الأديان وهكذا إلى كل ما يندرج على أية ناحية من نواحى الحياة الإنسانية أو النشاط البشرى على الأرض.

وإن لم يكن للتاريخ معنى فى اللغات الأوربية على وجه التعميم إلا أن يكون طريقة للبحث، إلا أن اللفظ فى معناه اللغوى عند العرب يشير إلى الأوقات من ساعات وأيام وشهور وسنوات أما اصطلاحا فإنه علم يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها وموضوعه الإنسان والزمان .

وتحتل السير والتراجم فى مدونة التاريخ مكانا مرموقا ، فإذا كان التاريخ هو البحث وراء الحقيقة وتمحيصها وجلاء غموضها فى أى جانب من جوانب الحياة الإنسانية فإن السيرة هى البحث عن الحقيقة فى حياة إنسان فذ ، والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التى عاشها ، والأحداث التى واجهها فى محيطه ، والأثر الذى خلفه فى جيله . لذلك كانت أقرب إلى التأثير الدرامى من كل ألوان التاريخ الأخرى ، وكانت أكثر إثارة للقارىء من كل كتابة تاريخية غيرها ، حيث تجيش بكافة الانفعالات والعواطف التى تثور فى أعماق البشر والتى تتجرد

منها الواقعة التاريخية كحدث وإن كانت من عمل الإنسان ذاته، ذلك أننا حين نقص من خبر الواقعة التاريخية نجردها من كل ما يدعو إلى الحدس والتخمين من أسرار النفس الإنسانية وحوافزها ، فتبقى عارية إلا من الحقيقة وحدها فهي التي تضفي عليها رداء التاريخ وبهجته ، وهي التي تحببها إلى النفس الإنسانية حين تحدوها غريزة حب الاستطلاع إلى معرفة ما جرى .

وقد تطغى السيرة على التاريخ وتحتل الجانب الأكبر من مدونته ، فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ ليس إلا سيرة عظماء الرجال ، وهي نظرة قد بليت في بوتقة التفكير العلمي الصحيح ، بل هناك من يراها إحدى سمات التفكير التاريخي البدائي وإن سادت حقبة من الزمن حين أورثها الفكر اليوناني عصر النهضة ، فكانت سير « بلوتارك » رجع الصدى لفكرة الإغريق عن البطولة وتمجيد البطل حين نسبوا أعمالهم العظيمة إلى أبطال مجهولين أو معروفين ، فالإلياذة والأوديسية من نظم هوميروس ، والشرائع والقوانين من عمل ليكرجوس ، وفي الإلياذة والأوديسية تنسب الخوارق إلى أبطال من زمرة الآلهة .

إلا أن السيرة لا تحتل مكانها الحقيقي في مدونة التاريخ ما لم

تـكن هى نفسها تعبيراً عن الحقيقة التاريخية ، الحقيقة التاريخية التى تجمع بين البطل والقوى الاجتماعية التى تتجاوب معه وتحدوه إلى الغاية التى تنشدها .

فالسيرة جزء من كل وستبقى جزءا من الـكل التاريخى للإنسانية جمعاء .

أصل التاريخ :

الأصل فى التاريخ هو إدراك الإنسان لحقيقة وجوده الإجتماعى حين أخذ يـكون أسرة يحرص عليها ويعيش فى كنفها ويورث أبناءه تجاربه من القصص التى يقصها عليهم مما غبر من أحداث حياته ، ولعله كان يشير فى هذا القصص إلى ما ورثه أبوه من تجاربه أيضاً ، وهذا هو دور التاريخ الأزلى الذى يقوم به إلى الوقت الحاضر حين يسوق إلينا الحـكمة والموعظة من خلال التجربة الماضية حتى تتم لنا فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه كما يقول ابن خلدون .

ولعلنا لا نخطىء إذ نتصور رجل الـكهف وقد زين كهفه بتلك النقوش البدائية التى تصور حياته ليراها ويدركها من يأتى

بعده من بنيه أو عشيرته ، ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا إن تلك الصور التى حفظتها لنا كهوف الإنسان الأول هى أول ما دون الإنسان من تاريخه .

وقد لا نخطىء أيضاً إذا قلنا إن التدوين التاريخى يسبق بكثير اهتداء الإنسان إلى الكتابة ، إذ عمل الإنسان الأول على أن يصور حياته ويسجلها فى تلك الصور التى حفرها على جدران كهفه البدائى ، ويسبق التاريخ مرحلة التدوين التاريخى بمراحل إذ أنه قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض وإن لم يصل علمنا إليه إلا من ثنايا الحفريات التى تكشف كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان الأول أو تطور الحياة على الأرض .

ولكن علمنا بالتاريخ لا يصل إلا إلى عدة آلاف من السنين وهى عمر قصير إذ قيس إلى الحياة الإنسانية المديدة .

وقد لا نجد فى الكشف عن حياة الإنسان الأول ثمة فائدة لنا ، فهى على الأقل تتسم بالبداوة والتشابه الذى يطوى تجربة الأحقاب فى سنوات طوال ، إذ أن التقدم الإنسانى كان بطيئا إلى حد لا نلتى إليه بالا إذا قيس بالتقدم الهائل الذى يمتطيه الإنسان فى حاضره وفى ماضيه القريب نسبيا وإن عد بآلاف السنين . والذى يطوى تجربة الأحقاب فى سنوات وإن طالت

إلا أنها لا تعد شيئا فى عمر الأبدية الطويل . إلا أن المراحل الأولى التى طواها الإنسان فى سلسلة التقدم والارتقاء تبدو من وجهة النظر التاريخية ذات أهمية بالغة ، فالكشف عن النار وطهى الطعام والاهتداء إلى الزراعة أو على الأقل استنبات البذور وحاجتها إلى الماء والتربة الصالحة وجبر العظام المكسورة ، لا تقل أبداً عن أهمية الاهتداء إلى الكتابة ، وهى ولا شك مرحلة متقدمة من مراحل الارتقاء الإنسانى ، لاتقل فى أهميتها عن الكشف عن البخار والكهرباء والذرة فى عصرنا هذا ، فهى جميعا مراحل عديدة من مراحل تطور الحضارة وارتقائها، وما كان للحضارة أن تصل إلى ماوصلت إليه ما لم تجتز تلك الخطوات الأولى فى أمن ورخاء ، وسيبقى التاريخ قاصرا مالم يهتد إلى تلك المراحل الأولى من حياة الإنسان على الأرض .

فالتاريخ إذن ملحمة طويلة الأمد لا نحفظ منها غير القليل ، أما كثيرها فضائع مع الماضى الذى ذهب به .

ولا تتعدى معرفتنا بالتاريخ معرفة ما اهتدينا إليه من مدونات العصور المواضى وهى مدونات بدأت ولا شك بعد اهتداء الإنسان إلى الكتابة ولم يصل إلينا منها غير القليل الذى سلم من عوادى البلى .

ولكن هذه المدونات بدورها وان عدت بداية المعرفة التاريخية إلا أنها لا تعد بداية للتاريخ ، بل هي إحدى مصادره العديدة وإن كانت في حقبة من الحقب المصدر الوحيد للمعرفة التاريخية . أما التاريخ أو التأريخ فقد بدأ في مرحلة متأخرة نسبياً ، إذ بينما ترجع المدونات التاريخية سواء على جدران المعابد أو قبور قدماء المصريين أو أوراق البردى أو ألواح سومر وبابل المسمارية إلى بضعة آلاف من السنين قبل الميلاد ، حين قام هيكاتيوس الملطى في منتصف القرن السادس قبل الميلاد فأرخ لنشأة الإغريق وتجوالاتهم الأولى وكان ذا حاسة تاريخية نافذة بالرغم مما شاب تاريخه من أخطاء ، فهو القائل « لا أقص خبرا ما لم أعتقد بصحته فأساطير الإغريق عديدة وما هي إلا خرافة » .

والواقع أن المنهج العلمي للتاريخ قد بدأ على يد الإغريق ، وإن كانت بداية فجة إلا أنها كانت موفقة إلى حد بعيد حين أخذوا يحررون العقل البشرى من سلطان الخرافة ، ويتلمسون العلل لظواهر طبيعية كانت تنسب حتى ذلك الوقت إلى نزوات الآلهة وأهوائها ، وكان ذلك عندما تنبأ « طاليس الملطى » بكسوف الشمس عام ٥٨٥ ق . م وصحت نبوءته ، فقد

تملك الإغريق حينذاك شغف بالبحث والتنقيب ، وكانت حياة الإنسان هى أول ما أثار اهتمامهم فأوغلوا فى ماضيه ورادوا آثاره ودرسوا مدنياته ، وكانت تلك البداية التى بدأها « هيكاتيوس الملطى » حين فصل بين الحقيقة والأسطورة فى تأريخه لنشأة الإغريق .

ثم كان « هيرودوت » ويلقب بأبى التاريخ ، شب فى مدينة « هاليكارنسوس » فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى « ٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م » ، وجاب أقطار الشرق باحثا فى ماضيه متقصيا أحواله ، مدونا لما وعى من تاريخه فى أسلوب قصصى أخاذ ، وكان ذا بصيرة بطبائع الشعوب ونظرة ينفذ بها إلى جوهر الحقيقة شغوفا بالرواية والسعى وراء التفاصيل والاستطراد القصصى . فاستهواه النزاع بين الإغريق والفرس وكان قريب عهد به ، فشهد نتائجه والآثار التى ترتبت عليه ورأى فيه صراعا بين مدنيتين مختلفتين إن لم تكونا متناقضتين فأرخ له ، وكانت الصورة التى أبرزها لهذا الصراع هى الصورة الخالدة فى مدونة التاريخ لصراع النقائض والاضداد منذ الأزل حتى وقتنا هذا .

ومن بعد هيرودوت كان « تيوسيديد » « ٤٧١ — ٤٠١

ق . م » وفاق هيرودوت فى اكتناه جوهر الحقيقة من بين شتى الروايات ، وفى صوغ القصة التاريخية ، غير أنه حصر التاريخ فى ميدان ضيق فحمله على الحرب والسياسة حين أفرط فى سرد أحداث السياسة والحرب فى تأريخه « لحرب البلوبونيز » وهى الحرب التى دارت بين آثينا وأسبرطه ، وقادته تلك النظرة الضيقة إلى تمجيد الأفراد والإعلاء من شأن البطولة ، وهى نظرة سادت الدراسات التاريخية لزمن طويل ، وهو صاحب النظرية المشهورة عن « دورة التاريخ » بمعنى أن التاريخ يعيد نفسه ، فمن المفيد معرفة ما حدث فى الماضى إذ من المحتمل أن يحدث فى المستقبل شىء من قبيل ما حدث فى الماضى » ، فكأنه اتخذ من التاريخ أداة لرسم طريق المستقبل أكثر مما هو لجلاء الحاضر وتفسيره .

وفى المشرق ظهرت حوليات مانيتون المصرى ، وتاريخ بابل « لبيروسس » وقد عاش كلاهما فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان أولهما كاهنا مصريا عاصر بطليموس الأول والثانى ، وكتب تاريخا باللغة اليونانية لقدماء المصريين ، اعتمد فى كتابته على المدونات المصرية القديمة وقسم فيه الأسرات التى حكمت مصر إلى ثلاثين أسرة ، وهو التقسيم الذى أخذ به المؤرخون

من بعده . وقد ضاع مؤلفه ولم يبق منه غير شذرات كانت ذات نفع كبير لعلماء الآثار ، أما الثانى فكاهن بابلى عاصر حكم « أنتيوكس الثانى » فى سورية وكتب باللغة اليونانية أيضاً تاريخاً لبابل استمده من المصادر البابلية القديمة ، ولم يبق من كتابه هو الآخر إلا ما نقله بعض مؤرخى اليونان عنه ، وتتفق قصته عن الطوفان وما دونته النقوش المسمارية عنها .

ومن قبل هؤلاء المؤرخين ظهرت أسفار العبرانيين على أزمنة متفاوتة ، ففى القرن التاسع قبل الميلاد على وجه التقريب جمعت أسفار موسى الخمسة ، وأسفار يشوع وصموئيل ، وفى القرن السادس قبل الميلاد ظهر سفر الملوك الأول وسفر الملوك الثانى وهى التى تكون الأجزاء الأولى من العهد القديم ، وهذه الأسفار وإن عدت من أقدم المدونات الأدبية ، إلا أنها حفلت بقصص الأنبياء والرسل التى لا تعدو كونها قصصا تاريخيا . وقد تركت بنزعتها الدينية آثاراً بعيدة المدى ولمدة ألف عام فى علم التاريخ حين آل أمره إلى القساوسة الرهبان بعد انتصار المسيحية على الوثنية الرومانية وغدا مسخرا للاهوت لا يحفل بالحقيقة التاريخية قدر ما حفل بالموعظة والحكمة الدينية وأخبار الخوارق والكرامات .

وما كان لنا أن نعد أسفار العبرانيين عملا تاريخيا لولا هذا الأثر الذى تركه آباء الكنيسة الأول فى مناهج البحث التاريخى .

من الإغريق إلى الرومان :

كان « بوليبيوس » آخر مؤرخى الإغريق العظام ، عاش فى روما فى القرن الثانى قبل الميلاد وكتب تاريخا للجمهورية الرومانية تناول فيه نشأة روما ونظامها السياسى وقصة الفتوح الرومانية الأولى ، وأتيحت له هذه المقارنة بين نشأة هذه المدينة الجديدة وشبابها الحى الذى يقذف بها إلى غوارب المجد وبين المدن الإغريقية المستقلة فى وطنه ، ولعل تلك المقارنة هى التى حملته على الأخذ بمذهب تيوسيديد فى « الدورة التاريخية » ونزعة التعريف الفلسفى للتاريخ حين رآه ضربا من ضروب الفلسفة يحدده المثل الأعلى وتؤكده الواقعة التاريخية ، وهو تعريف أشاعه مؤرخ إغريقى آخر عاش بعده بقرن ونصف تقريبا هو « ديونسيوس » « حوالى ١٥ ق . م » ، وأخذ به الفيلسوف الإنجليزى « الفيكونت بولنجبروك » فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى .

ويبقى التاريخ الرومانى عالة على مؤرخى الإغريق يكتبونه

باليونانية حتى نشر الخطيب الروماني الصارم « كاتو » كتاب « الأصول » فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم كان هذا السياسى الرومانى المتعدد المواهب يوليوس قيصر فأرخ لحروب الغال فى سفر رائع نرى فيه صورة قيصر ماثلة فيه بالرغم من حرصه على كتمان شخصيته ، ثم أصدر كتابا آخر عن الحرب الأهلية يصور الصراع بينه وبين بومبى ومجلس السناتو .

وهناك مؤرخ من معاصرى قيصر وشيعته هو سالست « Sallust » « ٨٦ — ٣٤ ق . م » تناول أحداث عصره العاصفة فى سفر لم يبق منه غير رسالتين الأولى عن مؤامرة كاتلين ، وهى مؤامرة سياسية دبرها رومانى من أصل نبيل هو كاتلين لقلب الحكومة الارستقراطية فى روما وتولى القنصلية العامة ، وفشلت بعد أن كشف عنها الخطيب اليونانى شيشرون وحمل عليها فى مجلس السناتو فى خطب رنانه تعد من أروع آثار الآداب اللاتينية . أما الرسالة الثانية فقد أرخ فيها للحرب النوميدية التى وقعت فيما بين « ١١١—١٠٦ ق . م » وكان سالست كاتبا متشائما أخذ يسوق النذر إلى قومه عن الهاوية التى يترددون فيها بما ساقه إليهم من غدر كاتلين والخيانة التى ارتكبها قواد روما فى الحرب النوميدية بقبول الرشوة من

« يوجرثا » ملك نيوميديا مما أدى إلى هزيمة الجيش الرومانى ، ولا يرى فى كفاح صديقه قيصر للفساد الذى انحدرت إليه الارستقراطية الرومانية منقذا لها من الإنهيار والدمار .

وجاء « ليفى » بعد « سالست » فى فترة الانتقال من الجمهورية إلى الامبراطورية (٥٩ — ١٧ ق . م) يحدوه الأمل على خلاف سالست بمستقبل روما وحيويتها وقدرتها على تخطى المحن ، فأخذ يتغنى فى أسلوب خطابى بأمجاد الجمهورية الرومانية وفتوحها الباهرة ، إلا أن نزعته الوطنية تسوقه فى تيارها وتطغى عنده على الحقيقة التاريخية فيسخرها لدعم فكرته الوطنية فلا يتحرج من أن يخترع الأحاديث ويسوقها على لسان شخوصه التاريخية .

وبعد ليفى بقرن جاء تاسيت « Tacitns » (٥٥—١١٧م) آخر مؤرخى الرومان العظام وأشهرهم على الإطلاق فصاحة وقوة بيان ، كان قنصلا وصهرا للقائد الرومانى الشهير أجريكولا ، حمل على تدهور الرومان ، وصور فساد الأباطرة وانحلالهم وما كان يدور فى قصورهم من ضروب الفجور والتهتك ، وقارن ذلك بفضائل الشعوب التيوتونية البدائية الساذجة التى أخذت تتصل بالامبراطورية الرومانية .

وحمل تاسيت على انتشار المسيحية وعدها خطرا يهدد الامبراطورية ، فأعلن أن النصارى هم (أعداء الجنس البشرى) ولم يدرك أبدا أن روما يمكن أن تكون حامية الدين الجديد وأن انتشاره سيحمل الامبراطور على اعتناقه وإعلان حمايته له بعد ذلك بقرنين من الزمان .

البطل والسيرة :

خلص الإغريق التاريخ من سطوة الخرافة وبدأت لمحات باهرة من التفكير التاريخى تسفر عن اتجاهات بينة ، فكشفوا مثلا عن طبيعة الصراع الأزلى بين المجتمعات البشرية ، كما رآه هيرودوت فى الصدام بين الإغريق والفرس ، وأرسوا قواعد نظرية « الرجل العظيم » أو البطل فى التاريخ وقالوا « بدورة التاريخ » ، وعرفوا ما للتاريخ من أثر فى تربيه الساسة والحكام وما يسوقه من عظة وعبرة ، إلا أنهم أغفلوا حساب الزمان فى تدوين الأحداث فغامت فى أذهانهم فكرة الاستمرار وما تؤكده من التسلسل المنطقى للتاريخ .

وأخذ الرومان عن الأغريق تلك الاتجاهات التى سادت تفكيرهم عن التاريخ فأكدوا نظرية « الرجل العظيم » وهى

النظرية التى بقيت حتى القرن التاسع عشر شامخة الذرى فى موكب التاريخ الحافل ، تشد أحداثه إليها شدا عنيفا لا يستطيع منها فكاكا ، وكأن البطل هو الصانع الوحيد للتاريخ ، وغدا التاريخ على تلك الصورة تاريخ أفراد يكيفون سير الوقائع إن لم يكن على هواهم ، فعلى أقل تقدير نتيجة لتفاعل إرادتهم أو تصادمها مع أرادة أبطال آخرين ، وسار التاريخ فى هذا الإطار تاريخا للدولة وتاريخا لحكامها وساستها وقوادها ، حتى الأعمال العظيمة التى أرست قواعد الحضارة ودفعتها نحو الارتقاء هى الأخرى من صنع هؤلاء الابطال .

وليست الطرافة التى تتجلى فى سلوك الأفراد أكثر مما تتجلى فى سلوك الجماعات ، أو الجلال الذى يكتنف سيرة البطل ، أو الإثارة التى تتضمنها عناصر بطولته هى التى حولت — كما نعتقد — سير التاريخ نحو ذلك المجرى ، وليست الأساطير المثيرة التى نسبت إلى أبطالها من المعجزات والخوارق ما يفوق طاقة الفرد العادى ويبهره هى الأخرى سببا فى أعلاء البطولة ، ولكنة الإنسان نفسه — هذا الإنسان الذى صنع التاريخ هو الذى ولد وفى أعماقه شعور بالعجز أورثته إياه تلك الظواهر الطبيعية التى لايستطيع لها تفسيرا ، من برق ورعد وخسوف

القمر وكسوف الشمس ، وتحول هذا الشعور بالعجز إلى نوع من الاستسلام لتلك القوى الخفية ، فهو يلوذ بكل ما يجد لديه الحماية والأمن ، وتمثلت تلك الحماية فى ساحر القبيلة وكاهنها وهو لا ريب إنسان ذكى استطاع أن يقنع النـاس بقدرته وسيطرته على تلك القوى الخفية التى تفزعه ، ورأى الساحر أو الـكاهن أن يستعين برجل قوى أو محارب شجاع تدين الأتباع بقوته وشجاعته وغدا هذا الاستسلام طبيعة فى نفس البشر ، فلما بدأ الإنسان يـكشف عن بعض أسرار الـكون وتحركت فى نفوس أذكيائهم الرغبة فى معرفة حقائق الأشياء وأحوالها ، بقيت فى نفسه إثارة من الخوف والعجز والاستسلام تسوقه إلى اكبار البطولة وتقديسها ، وغدا الناس بين كثرة تابعة وقلة متبوعة ، وعلى رأس تلك القلة المتبوعة يتسنم البطل غارب المجد والسلطان ، فهو الملك المؤله فى مصر القديمة ، وهو المحارب الشجاع فى أسبرطة ، وهو السياسى أو القائد المنتصر فى أثينا ، والفاتح القاهر فى روما . وكان تاريخ مصر هو تاريخ أمجاد ملوك عظام ، وكان تاريخ أسبرطه فواحا بالدماء ومعارك البسالة والقتال حتى الموت ، وكان تاريخ أثينا تاريخ قادة أفذاذ من قبيل تموستـكليس الذى مجده « ثيوسيديد » .

ويستوى تاريخ بلوتارك «حياة العظماء» على القمة من أعمال المؤرخين فى عهده وإلى ما بعد عهده بحقب طوال ، فقد ظلت صور أبطاله نبراسا يهتديه ملوك أوربا وقادتها زمنا طويلا ، ذلك أنه إلى جانب ما امتاز به من قدرة على سرد الحقائق وتفسيرها ، نحا بالتاريخ إلى جانب القدوة يحتذيها الناس من سلوك أبطاله وأعمالهم .

ويتسنم تاريخ السير منذ ذلك الحين قمة التاريخ وتسود نظرية الرجل العظيم فتترك لمستها القاهرة فى التاريخ العام ولا يعدو كونه تاريخاً لساسة الدول وحكامها ويبقى جامداً أمامها لا يتحرر منها ولا يستطيع منها فكاكا حتى يومنا هذا .

ولم تستطع المسيحية حين غلبت الوثنية فى روما وقهرتها ، واجتمعت لها السلطة الزمنية إلى جانب سلطانها الدينى بعد أن اعتنقها قسطنطين وأعلن أنه حاميها وكبير أساقفتها أن تقضى على نظرية الرجل العظيم ، بل أعلت من شأنها إذ بقى الناس يقدسون البطولة والبسالة من أثر تقديسهم لتلك القوة الغالبة التى تسوق البشر ، والتى ردها القساوسة إلى إرادة إلهية وقوت منها بطريق غير مباشر ، وبالرغم من انحراف التاريخ حين آل أمره إلى القساوسة والرهبان عن اتجاهه العلمى الذى بدأه

الإغريق وغدا مسخراً للاهوت قائماً على خدمة الكنيسة وتعاليمها لا يعنى بالحقيقة قدر ما يعنى بالخوارق والكرامات التى ظن آباء الكنيسة أنها تعلى من شأن الدين فتدعم العقيدة الدينية ، فقد بقيت تلك الخوارق تسوق الناس إلى تقديس القوى القاهرة ومن ثم بقيت عبادة البطولة أو نظرية الرجل العظيم قابعة فى خفايا اللاشعور حتى انبعثت مرة أخرى فى عصر النهضة .

ومهما يكن من طابع التاريخ فى كنف اللاهوت فقد أغفل كما يقول « بيورى » السببية والعلاقة بين السبب والمسبب ورد كل شىء إلى إرادة الله ، أما البشر أنفسهم فليسوا سوى دمى تتحرك بلا إرادة فى ذلك الصراع الرهيب بين الله والشيطان أو بين الخير والشر .

فلما انحسر سلطان الكنيسة وعاد الناس مرة أخرى ينشبون ركام الماضى ، ويستوحون آثار الإغريق ألواناً باهرة من التفكير العقلى والفلسفى ، بقيت فى نفوسهم آثاره من القداسة لتلك القوى الكبرى التى تسيطر على مصير البشر وهى أشبه فى تأثيرها وإرادتها بالقوى التى أودعتها الآلهة أبطال الإغريق ، فبالرغم من أن الإغريق قد أخذوا يجردون تاريخهم من تأثير الأسطورة حين حمل عليها هيكاتيوس الملطى ، إلا أن إكبارهم

للبطولة قد انتقل من البطل الأله إلى البطل الإنسان ، حتى غدا بلوتارك كما يقول ادوارد كار — أعظم مؤرخى القديم تأثيراً فى حركة الإحياء الكلاسيكى للنهضة الأوربية ، وأصبح هذا القول المأثور « التاريخ هو سيرة عظماء الرجال » حكمة خالدة حتى بداية هذا القرن وبذلك احتلت السيرة مكانتها الأثيرة فى دنيا التاريخ .

العرب وتاريخ السير :

لم تكن حركة الإحياء الكلاسيكى هى التى أوحت وحدها كما نعتقد إلى مؤرخى عصر النهضة العناية بدور البطل فى التاريخ بل إن تأثير العرب كان فعالا فى السير بالتاريخ قدماً فى هذا الاتجاه . فقد كانت كتابة السيرة النبوية أول عمل من أعمال التدوين التاريخى يقوم به العرب ، حين مست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وحياته استقصاء للسنة فحملت رجالا — كما يقول أستاذنا المرحوم عبد الحميد العبادى — توفروا على جمع أخبارها وتدوينها وكان ذلك بداية اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ ، واحتلت السير والتراجم مكاناً مرموقا فى تاريخ العرب .

ويرجع هيرنشو ما نالته تآريخ العهد الأخير من العصور الوسطى إلى تأثير الحضارة العربية ، فقد تماست

النصرانية والإسلام فى الأرض المقدسة وما يجاورها ، وفى صقلية وجنوبى إيطاليا والأندلس، ولم يكن هذا التماس بحال من الأحوال عدائياً لا فى جملته ولا فى نفس الأساس الذى قام عليه . . . . فقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم العلم والمعرفة ، لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا « الكفار » الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية دياناتهم ، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما . ففى مجال التاريخ الذى نحن بصدد الكلام عليه وحده ، نجد المسعودى العربى « ٢ — ٩٥٦ » يعرض فى كتابه — مروج الذهب — عرض خبير ماهر تاريخ واثنوجرافية غرب آسيا وشمال أفريقيا وشرق أوربا ، ونجد ابن خلكان الدمشقى « ١٢١١ - ١٢٨٢ » يصنف معجماً فى التراجم التاريخية جديراً بأن يقرن إلى تراجم « فلوطرخ »(١) ثم نجد شيخ مؤرخى العرب عبد الرحمن بن خلدون التونسى « ٦٣٣٢ — ١٤٠٦ » قد كتب فيما كتب مقدمة

(١) كما جاء فى ترجمة العبادى لكتاب هيرنشو وهو « بلوتارك » كما جاء فى أمكنة أخرى من هذا الكتاب ، وقد آثرنا اللفظ بنطقه الإفرنجى على نطقه العربى . المؤلف

لتاريخ عام بلغت من سعة الإحاطة ، وصحة النظر وعمق الفلسفة ، ما جعلها مصداقاً لما قاله الأستاذ فلنت فى حق ذلك العالم التونسى الكبير من أنه « واضع علم التاريخ » — يقول هيرنشو — إن أثر هذه الثقافة العربية انتقلت إلى أوربا النصرانية عن طريق مدارس الأندلس وجنوب إيطاليا فكان من العوامل القوية فى انتهاء العصور الوسطى وانبثاق فجر العصور الحديثة .

والواقع أن فضل العرب على علم التاريخ يفوق ما لهم من فضل على العلوم الأخرى التى أضاءت مشعل الحضارة الأوربية الحديثة ، فقد أكمل العرب مابدأه الإغريق والرومان فى بناء الفكر التاريخى ، وضربوا فى شتى فنون التاريخ بسهم وافر فأرخوا للأمم والشعوب والفتوح والمغازى والسير والتراجم والأقاليم والبلدان .

وكانوا أول من كتب فى تاريخ التأريخ ، ووضحت فى أذهانهم فكرة الزمان والمكان فصنفوا العصور ، وعنوا بتوقيت الواقعة التاريخية بالأيام والشهور والسنين وهو ما لم يعرفه مؤرخو اليونان والرومان ، وأخذوا فى الرواية التاريخية بالاسناد وهى سنة محمودة جروا عليها فى رواية الحديث للمحافظة على النص ، وتحرى الحقيقة ، وجاء ابن خلدون فربط بين الفرد والمجتمع

والواقعة والبيئة كما وضع أسس النقد التاريخى وفلسفة التاريخ .

وبلغت كتابة السير والتراجم على يد العرب ما لم تبلغه على يد الإغريق والرومان ، فارخوا للمدن كما أرخوا للأعلام ، ومن قبيل ذلك كتاب « ولاة مصر وقضاتها » للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، « وتاريخ بغداد وأعلامها » للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وتاريخ « دمشق وأعلامها » لأبى العساكر من مؤرخى القرن السادس الهجرى ، « ومعجم الأدباء » لياقوت الحموى « ووفيات الأعيان » لابن خلكان من مؤرخى القرن السابع الهجرى ، « والدرر الكافية » لشهاب الدين بن حجر العسقلانى ، ويؤرخ لأعلام القرن الثامن الهجرى وهى سنة جرى عليها مؤرخو العرب بعد ابن خلكان فى الترجمة لأعلام كل عصر على حدة ، وتتصل تراجم أعلام العصور قرناً فقرناً بعد ذلك فنرى « الضوء اللامع » للسخاوى مترجماً لأعلام القرن التاسع الهجرى « والكواكب السائرة » للغزى فى تراجم رجال القرن العاشر الهجرى ، « وخلاصة الأثر » للمحبى فى تراجم رجال القرن الحادى عشر ، و « سلك الدرر » للمرادى فى تراجم رجال القرن الثانى عشر . وأخيراً

« تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر » لأحمد تيمور .

إلا أن كتابة السير عند العرب لم تحفل بنظرية الرجل العظيم كما حفل بها مؤرخو اليونان والرومان ، ذلك أن البطل فى التاريخ الإسلامى لم يكن غير ظاهرة اجتماعية لروح العقيدة الدينية التى سادت المجتمع الإسلامى ، يستمد كل فضائله من تعاليم الشريعة ، وقد سوت الشريعة الإسلامية بين الناس إلا فى طاعة الله — إن أكرمكم عند الله أتقاكم — ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى — ثم إن الخوارق والمعجزات والعبقريات الفذة التى بقيت تسيطر على مشاعر مؤرخى الإغريق والرومان من تأثير الأساطير القديمة حملتهم على تمجيد البطولة والدور الذى يقوم به الرجل العظيم ، ولم يكن لهذا التأثير نظيره فى الفكر الإسلامى ، فقد حرر الإسلام العقل من آثار الماضى تماما ، وانبعث فى ظله مجتمع جديد تحدوه عقيدة جديدة خلت تماماً من تمجيد الفرد إلا بقدر مايعمل فى طاعة الله ، فهذا عمر بن الخطاب يتوجه إلى المسلمين فى أول خطاب له بعد بيعته بقوله « أيها الناس ، ما أنا إلا رجل منكم ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة الله ماتقلدت أمركم » .

فالبطل فى السير والتراجم العربية لايصنع التاريخ ، ولكنه فى إطاره صورة تتمثل عصره وبيئته ، ولا يعدو كونه ظاهرة اجتماعية تتفاعل فيها أحداث عصره ، وهذا ما انتهت إليه كتابة السير فى التاريخ الحديث .

السير فى التاريخ الحديث :

مازالت السير تحتل مكاناً مرموقاً تبوأته منذ القدم فى رحاب التاريخ فهى أشهى كتب التاريخ إلى نفس القارىء ، ذلك أن الإنسان ينشد دائماً معرفة ذاته أو أنه يسعى إلى معرفة الكمال والنقص فى غيره مقروناً إلى ذاته ، وكأنه يريد أن يطمئن إلى نفسه بما يراه من صور غيره . وكما تكثر المرأة من النظر إلى مرآتها حتى تطمئن إلى جمالها أو تلمح فى صورتها مايميزها على غيرها من النساء ، نرى الإنسان يقرأ السيرة وكأنه يرى فيها صورته أو صورة ماينشده ، فقد تمنحه الثقة فتدفعه إلى الطموح أو تضفى عليه نوعاً من التأساء عن طموح لم يتحقق ، أو تغرقه فى خيال كاذب من البطولة والعظمة حين يصور نفسه على صورة البطل وهذا أسوأ ماتؤثر به السيرة فى قارئها ، وخاصة إذا أغرق كاتب السيرة فى تمجيد الشخوص .

والسيرة فى التاريخ كالقصة فى الأدب ، والقصة بدورها أشهى ألوان الأدب إلى نفس القارىء ، وقد تفوقها المسرحية فى ذلك إذ أنها تمثيل للقصة فى صورة الواقع الملموس ، وهذا الواقع الملموس هو الذى يشد الناس إليه بهذا الدافع الغريزى من حب الاستطلاع ، وقد ننكر على الناس غريزة حب الاستطلاع فى واقع الحياة الجارى ، ولكننا لا ننكرها بالنسبة لما ض ذهب ، فهى فى الأولى أثم فى التطفل على أسرار الغير ، وفى الثانية فضيلة فى السعى وراء التجربة الإنسانية . وكلما حفلت السيرة أو القصة بالحركة والإثارة كانت أقرب إلى نفس القارىء ، إذ ينشد فيها بعض مايكمن فى عقله الباطن مما لا يفصح عنه أو يعجز عن تحقيقه .

وبالرغم من أن البطل فى السيرة لم يعد فى نظر مؤرخى العصر الحديث غير ظاهرة اجتماعية مما يخلع عنه ثوب البطولة الذاتية ، إلا أنه منذ كتابة السير قد تطور بما يعوض مظاهر البطولة القديمة بعرض صور التفرد فى حياة البطل ، وتأثير الظواهر الاجتماعية فى حياته ، وأثر تكوينه الجسمانى فى سلوكه وأعماله ، والبحث وراء هفواته ونزواته ، أو جوانب حياته الشخصية علها تفسر لنا عبقريته أو طريقته فى التغلب على الصعاب

أو اقتحام المخاطر أو علاج المشكلات مما يستهوى القارىء أكثر مما كانت تستهويه مظاهر البطولة البدائية .

لذلك بقيت السيرة وستبقى أشهى ألوان التاريخ إلى نفس القارىء ، وقد لا تكون المتعة الشخصية من أغراض التاريخ ، إذ أن المؤرخ لا يفكر فى إمتاع قارئه قدر مايفكر فى التجربة الإنسانية ذاتها ، وقد تستهويه هذه التجربة الإنسانية فلا يفكر فيا تتركه من أصدائها على الحاضر ، إلا أن المؤرخ مهما أغفل ذلك فإن القارىء وحده هو الكفيل بإدراك التجربة واستيعابها والإفادة منها فى حاضره .

التجميع التاريخى للسيرة :

يحتاج البحث التاريخى كما تحتاج كتابة السيرة إلى مراحل ثلاث قد تزيد إلى أربع إذا اعتبرنا صياغة القصة التاريخية مرحلة أخيرة ، والمرحلة الأولى هى مرحلة التجميع وفيها يعمل المؤرخ على جمع المادة التاريخية التى يمكن أن يعتمد عليها فى بحثه من الآثار والمدونات والروايات المتواترة التى تثبت صحتها ، وتبدأ هذه المرحلة بتحديد الموضوع من حيث الزمان والمكان حتى تتحدد عملية التجميع فلا يتشتت جهد الباحث ، ويلى ذلك

تحديد المصادر التى تتناول هذا البحث فى زمانه ومكانه والتى يتأكد الباحث من صحتها ، وتعتبر الوثائق الخطية أدق المصادر التى يعتمد عليها الباحث إلا أنها بدورها تحتاج إلى موهبة رفيعة من الالهام المواتى حتى يتبين صحيحها من زائفها ، كما تحتاج إلى شفافية الحس والاطلاع الواسع والذكاء الشامل والإدراك الدقيق ، وتأتى الآثار بعد الوثائق الخطية فى أهميتها ، وقد تبدو الآثار مصدراً دقيقاً لا يعروه الخطأ ، إلا أنها مصدر جامد لا ينطق ، وهى أصدق فى التاريخ للفن منها فى التأريخ للأحداث ، فالهرم مثلا قد يعطينا فكرة واضحة عن شكل المقبرة ومدى اهتمام قدماء المصريين بدار الآخرة ، وقد يلهمنا فكرة عن قوة الدولة أو جبروت الملك ، ولكنه يبقى بعد ذلك مصدرا أصم مالم تتول وثيقة من الوثائق أو نقش من النقوش الإفصاح عن حقيقته ، وحتى هذا النقش قد لا يكون صادقا إذ أنه لا يمكن أن يفصح أبدا عن أية رذيلة أو عسف اقترفه الملك ضد شعبه حين حمله على بناء هذا القبر الهائل ، ولا يكشف عن مثوبة أو مغفرة فى بنائه ، إذا كان التقرب إلى الملك الإله عملا ثوابه خير الجزاء فى العالم الآخر ، فما لا شك فيه أن الملك هو صاحب النقش وهو كاتبه الأول . فإذا عمدنا إلى التأويل

فإن التاويل لا يصل بنا إلى حقيقة ثابتة مهما استشهدنا بالقرائن ويختلف التأويل عادة من فرد إلى فرد ، بل ومن جيل إلى جيل ، فالفرد يحكمه مزاجه والجيل تحكمه تقاليده وارتقاؤه العقلى ، وما كان يستهوى المؤرخ القديم لا يستهوى المؤرخ الحديث ، كذلك تأخذ الأحداث العنيفة بلبه ، وتبهره بطولة المعارك وأمجاد الإنسان الفرد ، وهذا لا يعنيه غير تطور المجتمع الإنسانى إلى الكمال والخير ، ويختلف الحكم بين الاثنين على الواقعة الواحدة ، فإذا كانت الغاية من التاريخ أن يهدينا سبيل الرشاد كما قلنا ، فإن تأويل المؤرخ لحدث من الأحداث أو واقعة من الوقائع هو التأويل الذى يوافق جيله وعصره ، ويتفق مع الأفكار والمثل التى يعيشها فى جيله وفى عصره .

وقد يعمد المؤرخ إلى جمع كل غث وثمين ليقوم بعد ذلك بعملية الانتقاء بينهما ، وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل البحث التاريخى وهى مرحلة التمحيص أو النقد ، وتحتاج هذه المرحلة إلى قدرة فائقة من الاستقراء والمقارنة كما تحتاج إلى نوع من شفافية الإحساس بالحقيقة ، تلك الشفافية التى تقرب من الإلهام أو هى نوع من الإلهام الخفى ، وقد نسميها أحيانا قوة الملاحظة أو الذكاء اللماح ، أو الحاسة السادسة التى تلهم المؤرخ

وترشده إلى الحقيقة ، وهدف هذه المرحلة هو الوصول إلى الحقيقة البلجاء بين ركام من الروايات والأسانيد والمصادر بكافة أنواعها .

التأويل والتخيل :

وتبدأ بعد ذلك المرحلة الثالثة وهى مرحلة التأويل وهى أشبه ما تكون بألعاب المتاهات ، حيث يبدأ اللاعب من نقطة البداية ليسلك الطريق الصحيح إلى النهاية . كما أنها تشبه أيضا ألعاب الحل والتركيب ، حيث يجهد اللاعب فى تركيب شكل معين من قطع متناثرة لا تتجمع فى وضعها الصحيح إلا فى هذا الشكل فحسب ، فإذا ركبت فى شكل آخر بدا مختلا تدرك الخلل فيه أى عين عابرة .

وتحتاج هذه المرحلة إلى قدرة فائقة على التركيب ، كالقدرة على تركيب هيكل حيوان بائد من عظامه القليلة المبعثرة . ولاشك أنها قدرة الخيال الرحب والذكاء القادر ، فمن ركام المخلفات الإنسانية والمصادر المختلفة والافتراءات العديدة التى يسوقها الجهل والتعصب والتفسيرات الخاطئة لأحداث تعددت فيها الروايات ، يصل الخيال الرحب إلى الحقيقة البلجاء التى لا مين فيها ولا زيف ، ومن سمات

هذا الخيال الرحب أنه يربط بين العقل والعاطفة ربطا لا يجاوز حدود الحقيقة ولا يتخطاها بأى شكل من الأشكال .

فالتأريخ هو بعث الماضى كما هو فى صورة حية ، والفرق بين مؤرخ وآخر هو فى القدرة على بعث الحياة فى أحداث بادت وانقضت ، ولعل الصلة التى تربط بين الحاضر والماضى هى القادرة وحدها على أن تبعث الحياة فى ماض عفى ، فإن الإنسان مقيد إلى ماضيه بارسان ثقال لا يستطيع منها فكاكا وإن كان لا يحس ذلك تماما ، وإنما الذى يحسه ويرقب ثقله على الحاضر هو المؤرخ الذى أوتى من قوة الاستقراء والشفافية والمعرفة التاريخية ما يمكنه من إدراك هذا الأثر — سواء كان فعالا أو غير فعال — للماضى على الحاضر .

والمؤرخ كعالم الأحياء الذى يرد الأنواع إلى أصولها الأولى فعلى قدر معرفته بالحياة وتطورها على ظهر الأرض تكون قدرته على ذلك .

وعالم الأحياء الذى يرد الأنواع إلى أصولها الأولى ، هو نفسه عالم الأحياء . الذى يعيد تركيب هيكل حيوان بائد من بقاياه المتناثرة ، وكلما اكتملت هذه البقايا كان التركيب صورة للأصل ، فإذا نقصت كان التركيب ناقصاً بقدر ما فيها من نقص ، وقد يعمد

عالم الأحياء إلى استكمال التركيب من بقايا حيوان آخر من نفس النوع وفى نفس الحجم والسن ، ولكن ما كل علماء الأحياء ممن تواتيهم القدرة على تركيب هيكل حيوان بائد ، ومن تواتيه القدرة عليه فهو العالم الذى أوتى إلى المعرفة العلمية قدرة الإبداع والخلق وهى القدرة التى يتميز بها الفنان على العالم ، وإذا كانت قدرة الفنان هى فى الخيال الذى يحلق به فى أجواء سامقة من الخلق والإبداع ، فإن قدرة المؤرخ أو عالم الأحياء الذى يعيد تركيب هيكل حيوان بائد هى فى الخيال الذى يحلق به فى أجواء سامقة من الحقائق البلجاء ، بحيث تقوده معرفة حقيقة بعينها إلى معرفة حقيقة أخرى . فالخيال أو بمعنى أصح التخيل فى التاريخ الإنسانى أو التاريخ الطبيعى هو القدرة على بعث الماضى فى صورته الأصلية وإنه ليحملنا دون شك على تصور حقائق لا تكتمل الصورة بدونها ، فإذا رحنا نتحراها ونستلهم الوثائق والمدونات حقيقتها استطعنا أن نعثر عليها بين ركام الأساطير التى لا تقوم على سند من الإثبات أو التفكير العلمى . وإذا كان لنا أن نفرق بين الخيال والتخيل لقلنا إن الخيال هو هبة الفنان أما التخيل فهو هبة المؤرخ وعالم الأحياء فضلا عن القدرة البارعة على الاستقراء والاستشفاف التاريخى ، فالخيال يقوم أصلا على الخلق

والإبداع ، أما التخيل فهو القدرة على الاستعادة والاسترجاع الذهنى .

وبقدر ما يملك المؤرخ من قدرة على التخيل تكون قدرته على بعث الحياة فى وقائع التاريخ البائدة .

والتخيل هو النهاية التى تقف عندها مرحلة التأويل التاريخى فعندما يستقر ذهن المؤرخ على حقيقة معينة يهتدى اليها تفكيره ، يتخيلها حقيقة واقعة ليصوغها بعد ذلك تاريخا مكتوباً .

وينطوى التأويل دون شك على قدر من التخيل الذى يساعد على بناء الهيكل التاريخى من الحقائق الثابتة المجردة ، أو يهدى إلى حقيقة أخرى تتطابق وتتماسك مع حقيقة نعرفها ونتأكد من صحتها ، إلا أن التخيل فى مداه البعيد هو استعادة الصورة الكلية للواقع التاريخى كما هو ، وهى نقطة الانطلاق فى كتابة القصة التاريخية .

وقد نرى التخيل مرحلة قائمة بذاتها من مراحل البحث التاريخى تأتى بعد مرحلة التأويل وتسبق كتابة القصة التاريخية ، إذ أن المؤرخ بعد أن ينتهى من مرحلة التجميع ومرحلة النقد والتمحيص ومرحلة التأويل ، لابد وأن يتمثل الحقيقة التاريخية فينبعث الواقع الذى مضى صورة حية متكاملة فى ذهنه قبل أن

يبدأ فى تدوينه ، وفيها يتشابك العقل والعاطفة فيبعثان فى الرميم البائد حرارة الحياة .

والسيرة كبحث من مباحث التاريخ تمثل حياة إنسانية متكاملة من المهد إلى اللحد ، بل إنها تصل إلى ما قبل المهد من تاريخ الآباء والأجداد ، وتمتد بعد اللحد فيما تخلفه من أثر فى جيلها وفى الأجيال اللاحقة .

وهى أحفل بالتخيل من التاريخ المجرد ، وكاتبها أشبه ما يكون بعالم الأحياء الذى برع فى إعادة تركيب حيوان بائد منه بعالم الأحياء الذى يرد الأنواع إلى أصولها الأولى ، فهو أقرب إلى طبيعة الفنان من المؤرخ المجرد ، ذلك أن البناء التاريخى أشبه برد هيكل عظمى إلى ما كان عليه ، فإذا كان لعالم الأحياء أن يبحث لكل عظمة عن مكانها فى الهيكل العام ، فإن على كاتب السيرة أن يرد كل حقيقة تاريخية إلى موضعها من حياة صاحبها .

والتخيل هو الذى يضفى على السيرة كما يضفى على التاريخ تلك الحيوية التى ندركها فى إحساسنا بالتاريخ ، وهو الذى يربطنا بالحياة الماضية وبالواقع الذى نعيشه فى ظلها ، إذ مهما تلاشى أثر التاريخ ، تبقى فى أعماقنا لمسة منه لا تشدنا إلى الماضى

بقدر ما تربطنا بالحاضر ، ولعلنا نقول مع « بندتوكروتشى » إن التاريخ كله تاريخ معاصر .

الزمن والسيرة :

والتاريخ لا يعيش فى خيالنا قدر ما يعيش فى عقولنا وفى أذهالنا ، فنحن لا نحياه فحسب بحيث يذهب مع الماضى الغابر من أيامنا التى عفت ، ولكنه يبقى صورة قابعة فى أذهاننا ومائلة لدينا على الدوام ، فقد تمر الأيام باهته لا أثر فيها ولكن التاريخ هو الأحداث التى نحياها فعلا نتأثر بها ونؤثر فيها ، وليس هو الأيام التى نعيشها برغم هذا الحكم القاسى للزمن على التاريخ .

والتاريخ وليد الزمن حقا ، الزمن بأيامه ولياليه وسنينه وأحقابه ودهوره ، ولكن الزمن غالبا ما يتضاءل أمام ثورة الأحداث أو ركودها ، فقد تمر السنون الطوال وصورة التاريخ لا تتغير ، ثم يكون حدث كبير فى فترة قصيرة من الزمن فيترك فى حياة الإنسان من الأثر ما لا تتركه السنون الطوال بأحداثها الرتيبة المتشابهة .

وإذا كان التطور هو سنة الحياة فى سعيها إلى الارتقاء كما يقول دعاة الداروينية ، أو فى سعيها إلى الكمال كما يقول

الفلاسفة ، فإنه يسير مع التاريخ على وتيرة واحدة بمعنى أن التاريخ والتطور يتناسبان تناسبا طرديا إذا أخذنا بالمقاييس الرياضية . فالتطور الطبيعي يسير مع الزمن فى اتساق تام لا يخطىء معه عالم الحفريات حساب السنوات الماضية من عمر الإنسانية مهما أوغلت فى القدم ، والتطور الفكرى يسير مع التطور الحضارى فى خطى لا يسبق فيها أيهما الآخر ، والتطور التاريخى يسير مع الزمن سيرا متلاحقا ، فإنه إذ يسرع الخطى فى بعض البقاع يبطىء فى بعضها الآخر ، وإذا عج بالأحداث فى زمن ركد فى زمن آخر ، ولكنة لا يشذ أبدا عن سنة التطور ولا يخرج على قاعدة التناسب الطردى مع الزمن ، فالزمن والتاريخ متلازمان على الدوام ، ومهما تضاءل الزمن أمام ثورة الأحداث ، فإنه يبقى دائما العامل المؤثر فى سير التاريخ . إذ أن الأحداث الكبيرة فى التاريخ يسبقها ما يمهد لها ، فإذا قسنا الحدث التاريخى بوجوده كان قياساً خاطئا وقاصرا ، وإنما يقاس بامتداده التاريخى منذ أن كان جنينا فى عالم الغيب تمهد له الظروف للوقوع ، وتحصد الإنسانية الآثار التى ترتبت على وقوعه .

ولكننا حين ندون لوقائع التاريخ تبدو الأحداث الكبيرة

وكأنها ترتبط بزمن معين فتنسبها إليه ، وهنا يبدو الشذوذ الظاهرى فى التناسب الطردى بين الزمن والتاريخ .

أما فى السيرة فإن الحدث أو الواقعة أو العمل بلفظ أدق فى هذا المقام ، هو الذى يحتل وحده دون الزمن الإطار الأكبر فيها ، بمعنى أن الأفعال العظيمة التى يقوم بها فرد هى التى تجذب إليه انتباه التاريخ ، وهى التى تفتح له أبوابه ، وهى التى يعنى بها مؤرخو السير ، وإن كانت السيرة فى الواقع هى الامتداد الزمني لحياة صاحبها من المهد إلى اللحد ، إلا أن الأعمال العظام التى تنسب إليه قد لا تحتل من الامتداد الزمنى إلا بعضه ، فأعمال نابليون تبدأ فى مدونة التاريخ منذ سلط مدافعه على الثوار الذين قاموا ضد حكومة الإدارة فى باريس عام ١٧٩٥ وتنتهى بهزيمته فى واترلو ونفيه إلى سنت هيلين ،كما تبدأ أعمال تحتمس الثالث باعتلائه العرش بعد أخته حتشبسوت وقيامه بفتوحه الباهرة التى وصلت بالامبراطورية المصرية إلى أقصى ما وصلت إليه فى التاريخ القديم ، ويختفى اسم بسمارك من مدونة التاريخ بعد أن أقصاه الإمبرطور وليم الثانى عن منصب المستشارية .

ولكننا حين نكتب سيرة من السير نذهب إلى أبعد من تلك الأعمال العظام التى تنسب إلى صاحبها ، فنغوص فى تاريخه

إلى نشاته وطفولته ودراسته ، بل ونذهب إلى أبعد من ذلك فنتقصى حياة أبويه وأسرته ، ولعلنا لا نبغى إبراز المؤثرات التى كونت طفولته قدر ما نبغى اكتمال الحقائق التاريخية التى تتصل به ، وإن كان مما يهم السيكلوجيين تحليل العناصر التى كونت شخصية البطل حتى يجدوا تعليلا لتفرده فيغوص الواحد منهم فى أسرار طفولته وحياته ، ويتقصى أهواءه وملامحه الشخصية ليستقرئ منها ما يراه أساسا لتفسير الحوافز النفسية للبطل ، ثم يرد أعماله إلى تلك الحوافز مما ينفر منه المؤرخ الذى يرى فى الواقعة التى حدثت وحدها تفسيرا لكل سلوك أو حافز ، فالسيكلوجيون يقيمون بناءهم على الفروض والاحتمالات التى ينفر منها المؤرخ الذى يقيم بناءه على الحقائق المجردة ، وحين يلجأ إلى إبراز سمة غلبت فى حياة البطل فإنه يراها فى الأعمال التى تمت فعلا على يديه .

وقد تخدعنا نشاة البطل فلا تنم عن ذلك التفرد الذى صار إليه إذا قيست النتائج بالمقدمات : فقد كان ونستون تشرشل الذى قاد بريطانيا إلى النصر تلميذا متأخرا كثير الرسوب وكان صبيا مشاكسا . ولم ينجح اديسون شيخ مخترعى العصر الحديث فى مدرسه ، ولو تتبعنا طفولة كثير من عظماء التاريخ ما وجدنا

فيها لمحة من لمحات العبقرية التى نقيسها عادة بالتفوق الدراسى ، والانسجام الاجتماعى ، إلا أننا لا نضل بادرة توحى بشىء ما لا يستطيع الناس تفسيره فى حينه ، حتى إذا ولج مدونة التاريخ رأى فيها مؤرخو السير بعض ما ينشدون من دلالات التفرد والنبوغ .

ومهما كانت طفولة البطل أو العظيم ، ومهما كانت نشأته فإن أعماله وحدها و نبوغه وتفرده هى فى الحقيقة هيكل سيرته ، فإذا نضبت تلك الأعمال وغالبا ما تنضب إذا أقصى البطل عن ميدانه ، أو ألمت به كارثة ذهنية تودى بذكائه أو عقله ، أو كارثة اجتماعية كفشل يصيبه لم يعد فى سيرته مايستحق الذكر أو التنويه ، وتكون النهاية كما كانت البداية ، الإطار الذى يحتله العمل العظيم للبطل من سيرته ، فسيرة نابليون مهما كانت بدايتها ومهما كانت خاتمتها هى سيرته ما بين عام ١٧٩٥ حين قضى على الثوار فى باريس وعام ١٨١٤ حين قضى عليه فى معركة « واترلو » . وسيرة بسمارك على قدر ما حفلت به من أعمال فإنها تمضى رتيبة مريرة وهو يقضى سنواته الأخيرة فى وحدة قاتلة بالريف الألمانى أشبه بوحدة نابليون فى سنت

هيلين ، وفى الريف الألمانى تفيض سيرة بسمارك كما تفيض سيرة نابليون فى سنت هيلين .

وقد يتسنم البطل ذروة المجد حتى نهاية حياته ويكون الموت وحده ختام سيرته .

فالسيرة التاريخية هى قصة العمل العظيم الذى قام به صاحبها ، والزمن فى حساب مؤرخى السير هو الزمن الذى امتدت فيه أعمال صاحب السيرة ، أما العمر فهو الأطار الذى يحيك فيه المؤرخ سيرة يكتبها .

السيرة
بين الأدب والتاريخ

الأدب والتاريخ

من الناس من يدرج السير والتراجم فى باب الأدب ، وإن كنا لا ننكر علاقة الأدب بالتاريخ فإننا لا ننكر أيضا علاقة التاريخ بالسير والتراجم ، وإذا كان لنا أن نقول فى تعريف الأدب إنه صورة النفس الإنسانية فى صراعها مع الحياة ، فإن التاريخ هو صورة الحياة الإنسانية على الأرض. ذلك أن التاريخ لا يستطيع أن ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية إلا من خلال الأحداث والوقائع التى تثبتها الوثائق والمدونات ، والمؤرخ لا يستطيع فى ميدان الحقيقية البلجاء ظنا ولا تخمينا ، فإذا قدر له أن يحكم على النفس الإنسانية التى تسيطر على أحداث التاريخ ، أو بمعنى أدق تسيطر على سلوك من يصنعون التاريخ وتوجيه نزعاتهم ، فإنما هو حكم المتحرج المتحوط الذى يجتهد فى الاستقراء ، ولايجزم بالنتائج ما لم تكن حقيقة تسندها الرواية ويدعمها الدليل القاطع بصحتها ، كأن يوصف عمل من الأعمال بالدهاء أو الحمق أو الغفلة أو الحكمة ، إلى غير ذلك من الصفات التى نسندها إلى صناع التاريخ وليس

لنا سند فيها غير النتائج التى تمخضت عنها أعمالهم من نجاح أو فشل .

فالتاريخ هو الحقيقة الثابتة المروية ، وهو حقيقة ثابته لأن كل الأسانيد التى يعتمد عليها المؤرخ فى بحثه تثبتها وتؤيدها ، وهو حقيقة مروية لأن التاريخ لا يعنى بما هو خاف إلا عندما يتكشف خفاؤه ويتواتره الرواة سندا عن سند حتى يصدق ذكره .

وقد يحتاج التاريخ فى تدوينه أو روايته إلى الخيال ، ولكنه خيال لا يتعدى الأسلوب الإنشائى للرواية التاريخية ، أو هو الخيال القادر على امتطاء متن السحاب دون أن يخرج من إطار الحقيقة الصامدة لكل لون من ألوان النقد والتمحيص ، وهما ملكة المؤرخ الموهوب الذى يتميز بتلك الحاسة التى تعينه على إدراك الحقيقة بين ركام من الأباطيل والروايات القلقة ، هذا الخيال القادر إنما تتجلى قدرته فى بعث الحياة إلى تلك الوثائق والمدونات الجافة الذابلة ، واستخلاص الحقيقة من خلال القليل المتناثر من الروايات والآثار التى سلمت من البلى والدمار ، كعالم الحفريات الذى يرى فى بطون حفرياته صورة الحياة فى عصورها الخوالى ، أو أستاذ التاريخ الطبيعى الذى يعيد تركيب هيا كل مخلوقات بادت فى عصور سابقة على التاريخ من هذا القليل المتناثر من عظامها التى سلمت من البلى صدفة واتفاقا .

ولكن خيال المؤرخ غير خيال الأديب الذى يسبح فى أجواء سامقة ، من صنع نفسه أو إلهام ذاته ، غير عابىء بالحقيقة المجردة إلا بقدر ما يلهمه الخيال من صور النفس فى نزعاتها الأزلية وفى لانهائياتها المترامية ، فخيال المؤرخ أقرب إلى التصور ، تصور ما كان على ضوء ما يعرفه عنها ، أما خيال الأديب فخلق وإبداع ، فمهما اقترب الأديب من صور الحقيقة أو الواقعية فإن واقعيته لا تعدو تصويره للحياة فى الصورة التى يرتجيها أو الصورة التى هى عليها وإن اتفق مع المؤرخ فى أنه ينشد الكمال الإنسانى إلا أن الكمال فى عرف المؤرخ يتمثل فيما يمكن أن يفيده جيل من تجربة جيل سابق ، أما فى عرف الأديب فهو الصورة المثالية التى يتمثل فيها عالماً إنسانياً ينشد الخير والجمال ؛ ومهما أوغل الأديب فى الواقعية ؛ فإن واقعيته تتعلق بصورة أو عدة صور من صور الحياة يغلب عليها الطابع الدرامى وإلا ضاع منه الإطار الفنى للقصة أو المسرحية أو القصيدة ؛ لذلك نراه يتخير أبطاله من أناس غير عاديين ؛ أوجدهم القدر فأوغل بهم إلى حيث تختل إرادة الإنسان وتبطل إيجابيته ، فهو فى الغالب مسوق إلى غاية ليست ككل الغايات ، ولكنها غاية فيها بعض الشذوذ ، أو كل الشذوذ عن التواتر المعروف فى الحياة وإن كانت تلمس فى بعضها

جانباً من جوانب النفس الإنسانية فى إنسان فرد ، وإن كانت تمس جوانب أخرى فى أناس آخرين ؛ إلا أنها لا تمثل إنساناً حقيقياً فى الحياة ، وإن مثلته فإنما تمثل نموذجا من الشذوذ الإنسانى أو الخروج على المألوف . أو بعبارة أخرى تعبر عن تجربة إنسانية من نوع خاص ، فليست هى من التجارب العادية التى تمر فى حياة كل فرد ؛ وليست هى من التجارب التى يمارسها الفرد فى يومه أو فى كل يوم ، ولكنها تجربة غير مالوفة تنم عن نزعة أو نزوة ، أو صدفة طارئة ، أو خطا فى التقدير تحمل كما قلنا طابع الشذوذ ، وليس من الضرورى أن يكون الشذوذ انحرافاً فى نزوات الإنسانية أو نزعاته ، ولكن يكفى أنها تجربة غير عادية تمر بحياة إنسان ما ، يتناولها الأديب فيجيد تصويرها والتعبير عنها ، أو محاكاتها كما يرى أرسطو .

وقد يقال إن التاريخ ليس إلا تجربة إنسانية كبرى وهو بهذا صنو الأدب ، إلا أن التجربة التى تثير المؤرخ غير التجربة التى تثير الأديب ، والانفعال بالتجربة عند الاثنين جد مختلف ، فالتجربة التاريخية حقيقة مجردة تثير فى المؤرخ غريزة حب الاستطلاع والسعى وراء حقيقة أخرى تكملها وهكذا حتى يتكون لديه البناء التاريخى أو الهيكل العام للقصة التاريخية ،

وهى تجربة مضت وطواها الزمن وجهد المؤرخ أن يكشف عنها ويجلوها للعيان ثم يتلوها بعد ذلك فى سطوره ، أما التجربة الأدبية فهى موقف من المواقف يثير انفعال الأديب ، وهى تجربة ملهمة إذ يستطرد الأديب من هذا الموقف المثير إلى موقف آخر يتفاعل معه ويكتمل به إطار العمل الفنى ، وليس من الضرورى أن تكون هذه التجربة مما مضى وانتهى وانطوى ، بل إنها لتقع فى الماضى كما تقع فى الحاضر والمستقبل ، ولكنها تتعلق بذات الأديب ومدى انفعاله بها وقدرته على التعبير عنها تعبيراً فنياً يكسبها تلك الطلاوة التى يتسم بها الأديب فى التعبير عما يجول بخاطره .

وإن كانت التجربة التاريخية أيضاً مما يمكن حدوثه فى المستقبل ، إذ ليس فى التاريخ جديد كما يقال ، وهى بهذا تتسم بما تتسم به التجربة الأدبية فى أنها تقع فى الماضى وتتكرر فى الحاضر والمستقبل ، إلا أن التجربة التاريخية تجربة مضت وانطوت فحسب ، وإن تكررت فإن تكرارها لا يعنى حق المؤرخ فى القياس عليها وتصور أحداث وقعت أو كان من الممكن أن تقع نتيجة لها ، وليس هناك ما يثبت وقوعها ومادامت لم تثبت فإنها لا يمكن أن تكون حقيقة تاريخية يعتمد

عليها المؤرخ فى تدوينه للتاريخ ، وإن كان من حقه على هذا القياس أن يتنبأ بما يحدث فى المستقبل ، إلا أن هذا ليس من التاريخ فى شىء وإن كان من الممكن أن يندرج فى فلسفة التاريخ .

ولكن التاريخ والأدب صنوان من حيث الإنشاء الأدبى ، فتدوين التاريخ كالكتابة الأدبية فى حاجة إلى منتهى بلاغة الكاتب النحرير ، وإذا كان للأديب أن ينفعل بالمواقف التى تستثيره فتلهب خياله ، وتورى قريحته ، ويكون تعبيره عنها مليئاً بالحياة جياشاً بالعواطف ، فإن انفعال المؤرخ بأحداث التاريخ يضفى على كتابة القصة التاريخية حيوية جديدة تنبعث فيها الحياة الماضية حافلة بالحركة والنماء ، ولا يتأتى ذلك إلا لمن أوتى أسمى مواهب العقل والعاطفة معاً .

فالتعبير التاريخى غيره فى أى علم آخر ، إذ أننا لا نقصد من العلوم الأخرى كالطبيعة والكيمياء غير المعرفة المجردة ، أما فى التاريخ فإننا ننشد الغذاء لقلوبنا وعقولنا على حد سواء ، وسينتهى التاريخ بعد كتابته إلى أنه قصة فيه كل ما فى القصص من روعة واستثارة وعاطفة ، إذ هو قصة الإنسان الكبرى فى حياته على الأرض ، وفى تحديه واستجابته لظروف بيئته وفى نموه وتطوره ، وفى تحضره واختراعه لمقومات مدنيته ،

وهى قصة حافلة فيها من المأساة قدر ما فيها من الملهاة على حد سواء ، قصة مترعة بالسعادة والنعيم كماهى مترعة بالشقاء والبأساء .

السيرة قصة تاريخية :

والسيرة قصة تاريخية لا تشذ أبدا عما يقيد التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء ، إلا أنها قصة تتعلق بحياة إنسان فرد ترك من الأثر فى الحياة ما جذب إليه التاريخ ، وأوقفه على بابه ، وهى أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة والأحاسيس النابضة لأنها تعرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة حتى تتجلى مقوماث شخصيته وتبرز معالم حياته لتفصح عن سر نبوغه وتفرده ، إذ لا تحفل السير إلا بكل نابغة فريد .

لهذا كانت كتابة السير أمراً غير يسير لا يقدر عليها إلا من أربى على قدرة المؤرخ وإحساس الأديب معاً ، فالسيرة ليست سجلا لحياة فرد من مولده إلى مماته ، ولكنها قصة إنسان فذ أو متميز بكل ما ينبض به قلب هذا الإنسان من أحاسيس وعواطف ، وما اعتور عقله من فلتات الذكاء الفذ والخيال الجامح.

وأبرز ما فى السيرة هو العمل الكبير الذى قام به صاحبها ،

والأثر الفعال الذى تركه بعمله فى الحياة الإنسانية ، وبقدر ما يعظم هذا العمل ويعظم تأثيره ، بقدر ما يحفل به التاريخ فيقص خبره ويروى سيرة صاحبه ،

السيرة والحافز :

وهذا العمل هو المحور الكبير الذى يدور حوله كاتب السيرة ،وكل ما عداه من جوانب السيرة الأخرى كالنشأة والتربية والحياة العامة التى يحياها صاحب السيرة ، ما هى إلا منافذ ينفذ منها كاتب السيرة إلى الحافز الذى قاد صاحبه إلى العمل التاريخى . وما لم يصل كاتب السيرة إلى هذا الحافز ويتقصى أسبابه وعوامله كانت روايته قصة باهتة لا نبض فيها ولا حياة ، فهى سرد لحياة قد تبدو عادية إذا جردناها من هذا العمل الكبير الذى يشد التاريخ إلى صاحبه ، وإذا قص كاتب السيرة خبر هذا العمل مجرداً من الحافز الذى دفع إليه فكأنه قد جرد الجسم من روحه .

فالحافز هو القوة الباهرة التى تحرك العبقريات والمواهب ، فما لم يكن هناك حافز لا تثمر عبقرية أو موهبة ، وقد يقال إن الحافز جزء من الطبيعة الإنسانية ، وإنه يتكون فى الإنسان منذ نشأته الأولى ، وليس كل حافز مما يقود إلى عمل تاريخى ،

وليس كل حافز مما يمكن أن تلهمه العبقرية إلى عمل تاريخى ، فقد يوجد الحافز ولا توجد العبقرية التى تسنده للقيام بعمل تاريخى وقد توجد العبقرية ولا يوجد الحافز الذى يقود إلى عمل تاريخى ، إذ يكون الحافز فى هذا المجال قاصرا لا يصل بصاحبه إلى تلك الآفاق الرحبة التى تسع الحياة جميعا وتقود إلى العمل التاريخى ، فإذا امتد الحافز إلى تلك الآفاق الرحبة التى تسع الحياة جميعا دون أن تلهمه العبقرية ويقوده الذكاء ، كان الفشل رائده وأورث صاحبه مرض العظمة الكاذبة أو الانطواء النفسى .

وفى الحافز تتحدد إرادة الإنسان ، حيث يستبين امتداد حوافزه ، فتتحدد إرادته ويتحدد سلوكه وفقا لهذا الامتداد ، بل وكثيرا ما تتحدد معالم شخصيته وفقا لذلك أيضاً وخاصة بين الساسة ورجال الحكم ممن يفرض عليهم اتصالهم بالجماهير نوعا من السلوك المحدد ، والفضائل المعينة التى تستهوى تلك الجماهير .

فالبحث عن الحافز فى حياة صاحب السيرة هو مطلب كاتب السيرة حتى يستطيع أن يجلو تلك السيرة على حقيقتها ويعرضها سافرة واضحة القسمات أمام التاريخ .

الموهبة والحافز :

وغالبا ما تسبق الموهبة الحافز فى مجال النشوء والارتقاء ، بمعنى أن الموهبة توجد أولا ثم يعقبها الحافز ، أو أن الحافز هو رد الفعل للموهبة ، ويتحتم علينا تبعا لذلك أن تتقصى الموهبة فى كتابة السيرة قبل أن تتقصى الحافز . إلا أن الموهبة لا ترد إلى عمل مالم يدفعها حافز ، والحافز هو القوة الفعالة التى تحرك صاحب الموهبة ، والحركة التى ترد إلى عمل هى التى تعنى المؤرخ ، ولا تعنيه الموهبة إلا من حيث العمل الذى نم عنها ، وهى فى النهاية عند المؤرخ وصف لهذا العمل ، فيقال شاعر عبقرى وسياسى محنك وحاكم قادر وقصاص بارع وكاتب لماح ومخترع ماهر . . . إلخ .

وقد يقال إن الموهبة قد تعبر عن نفسها فتلج بصاحبها رحاب التاريخ دون أن يسبقها حافز ، فالشاعر الذى ينظم قصيدة رائعة يخلدها التاريخ ، والروائى الذى يكتب قصة تبقى على الزمن ، ومكتشف الميكروب حين يحفظ له التاريخ هذا الكشف ويحمده له ، وغير هؤلاء ممن تحملهم مواهبهم إلى آفاق رحبة من المعرفة والكشف عن المجهول أوالسعى وراء الحقيقة والخير

والجمال ، كل هؤلاء كانت الموهبة هى القدرة البارعة وراء العمل التاريخى الفذ ، وهى التى تكون الحافز وتدفعه للتعبير عنها وخاصة عند الفنان ، فكثيرا ما يبدو الفنان وليس لديه حافز إلا التعبير عما يجول بخاطره أو إبرازه فى صورة من الصور الفنية العديدة للفن ، بينما يبدو العالم أو المكتشف وقد تكونت لديه فكرة هى فى الواقع نتاج تلك الموهبة التى تميز بها . وتظل تلك الفكرة تلح عليه حتى يجلوها أو يكشف عما يريده منها ، كما أنها غالباً ما تكون نتيجة دراسة سابقة ، فكريستوفر كولمبس مكتشف أمريكا قد تصور من إدراكه لكروية الأرض إمكان الانطلاق من نقطة والعودة إليها بالسير فى خط مستقيم ، فإذا كان السير شرقا يصل بنا إلى الهند والشرق ، فإن السير غربا لا بد وأن يصل بنا إليها ، ولم يكن فى خاطره أنه اكتشف قارة جديدة أو أرضاً جديدة هى غير ما قصد ، فحين حملته الدراسة إلى فكرة حقيقية حفزته تلك الفكرة إلى العمل الذى قام به ، حتى وإن قادته الفكرة إلى كشف لم يجل بخاطره ، بل إنه ظل طوال حياته لا يدرى أنه كشف عالما جديداً ، فالحافز قد حمله على عمل معين انتهى إلى نتائج أخرى من قبيل المصادفة ، وإن لم تهدم تلك المصادفة صحة الفكرة التى حفزته إلى العمل لتحقيقها .

ولكن الدراسة لا يمكن أن تقوم على الجهد وحده دون الموهبة ؛ فالموهبة لدى العالم أو المكتشف هي الحافز للعمل ، كما هي الحافز للتعبير الفني لدى الفنان ؛ وطبيعة هذا الحافز هي التي تعني كاتب السيرة حتى يتبين الملامح الحقيقية للسيرة التي يترجمها ، وقدر العمل الذي قام به بين وقائع التاريخ فتكون السيرة صورة صادقة لحياة صاحبها ، فالحافز هو الذي يقف وراء العمل والموهبة هي التي تحدد إطاره .

العمل :

والعمل الذي يؤدي إلى ما نسميه بالواقعة التاريخية لا بد وأن يتميز بالجهد والمثابرة ، فإذا أبعدنا عنصر المصادفة في السيرة نجد أن العمل هو الذي يحدد الإطار العام للواقعة التاريخية ، هذا على اعتبار أن العمل قد تم فعلا وأن الواقعة حدثت وتأكد المؤرخ من وقوعها ، فإذا انتقلنا من مرحلة التمحيص التاريخي إلى مرحلة اليقين فإننا أمام عمل تمثل في واقعة تاريخية ؛ وهذا العمل هو الذي نتقصاه في سيرة البطل أو ننتظره من الشخصية التاريخية بمعنى أن الفرق بين الشخصية التاريخية والشخصية العادية أو اللاتاريخية كما يمكن أن نسميها ؛ هو الفرق بين العمل الذي

يؤدى إلى اكتمال واقعة تاريخية — والواقعة التاريخية لا تكون إلا مكتملة على الدوام ، إذ أن عدم اكتمالها لا يؤدى إلى قيامها — والعمل العابر المتواتر فى حياة الإنسان ، فهذا العمل العابر المتواتر فى حياة الإنسان أو حتى الإنسان البطل لا يكون حدثا تاريخيا وبالتالى لا يؤدى إلى قيام الواقعة التاريخية .

فالعمل الذى يعنى المؤرخ بتقصيه هو العمل الذى يكون حدثا تاريخيا ويؤدى إلى اكتمال الواقعة التاريخية .

والذى يعنينا من العمل فى كتابة سيرة من السير هو هذا العمل الفذ الذى عمله صاحب السيرة وحمله إلى رحاب التاريخ وميزه على غيره من البشر ، إذ أن التاريخ لا يعنى بغير المتميزين الذين تركوا طابعهم على صفحاته .

وهذا العمل هو الذى يحدد الطابع الخاص لشخصية السيرة أو الصفة التاريخية المميزة لها ، فتلك سيرة كاتب أو شاعر أو مفكر أو محارب أو رجل من رجال السياسة والحكم أو فاتك أو قرصان أو ثائر ، فالتاريخ لا يفرق بين شخوصه إلا من حيث الحكم على أعمالهم وتأثيرهم فى التاريخ ، وكلما امتد هذا العمل أو عظم التأثير كلما احتلت السيرة صفحات أوسع من مدونة التاريخ .

وقد نعرض فى السيرة لكثير من الأعمال العابرة أو المتواترة فى حياة البطل ، ولكننا لا نتناولها لذاتها ولكن لما تعكسه من صورة البطل وخلاله التى تؤثر فى حوافزه أو تكشف عن لمحات من مواهبه الفذه التى ميزته على غيره . وقد يعرض المؤرخ لكثير من التوافه فى حياته حتى وإن لم تعكس شيئاً من صورته المتميزة ، وهنا يسعى المؤرخ جاهدا وهو يأمل أن يكشف عن جانب من جوانب شخصية البطل ، أو أنه يغرم بالطرائف التى تجذب انتباه الناس وإقبالهم على قراءته ، فيوغل فى استقصاء النزوات العابرة ، أو المغامرات العاطفية ، أو ألوان الشذوذ والمباذل ، إذا كان ثمة شذوذ أو مباذل تستثير الناس أو تستهوى غرائزهم أو تكشف عن نوع من الضعف الإنسانى .

ولكن الذى يعنى به التاريخ هو فى الحقيقة ذلك العمل العظيم الذى تميز به البطل وترك أثره البالغ على صفحة الزمن ، فالأنبياء والرسل من إبراهيم وموسى فعيسى فمحمد عليهم السلام أجمعين ، هم أصحاب الرسالات السماوية التى تركت أعظم الأثر فى تاريخ الإنسانية ، ولن يكونوا غير أنبياء أضفت عليهم النبوة كل جلال فى التاريخ مما نتقصاه من خلالهم وصفاتهم ، وتحتمس هو بطل الامبراطورية المصرية القديمة ، حتى ليتوارى تحت اسمه

كل أسماء الأحامسة الآخرين مهما قيل من اعتدائه على آثار من سبقوه ، ويوليوس قيصر هو فاتح بريطانيا والغال ، وصاحب الملحمة الباهرة فى التاريخ الرومانى ، ونابليون سيبقى نابليون أعظم عبقرية عسكرية فى التاريخ مهما روى التاريخ من مغامراته العاطفية .

وهذا العمل كما قلنا هو ثمرة الحافز أو الموهبة أو هما معا . وقد يكون وليد المصادفة أو التصميم ، ولكنه فى كليهما لا يعوزه الحافز ولا يخلو من الموهبة ، فالمصادفة حين تدق أبواب الحظ للرجل العظيم ، لابد وأن تتخيره من ذوى المواهب الفذة ممن يحملهم الحافز إلى غوارب المجد ، فإن دقت المصادفة أبواب الحظ لخامل من الهمل لا تلبث على بابه طويلا ، ولكن لتعبره إلى غيره من ذوى الهمم والمواهب ، فمن المؤكد أن تجربة جيمس وات قد مرت بالملايين من قبله ، ولكن جيمس وات وحده هو الذى اكتشف قوة البخار ودق بهذا الاكتشاف أبواب عصر جديد . وقد ينتهى التصميم إلى غير ثمرة فيعبر به التاريخ لا يلقى إليه بالا ، إذ لا يحفل التاريخ إلا بما حدث فعلا وأثر فى سيره ولا يعنيه أن يتتبع محاولات الفشل والنجاح مالم تثمر حدثا تاريخيا .

الزمان والمكان:

وحين نحدد الحافز أو الموهبة فى حياة صاحب السيرة ، نبحث عن العوامل التى كونت هذا الحافز فنعود بالسيرة إلى الإطار الذى نشات فيه ، ويتحدد هذا الإطار بالزمان والمكان ، فالزمان هو مدى الوقت الذى تمتد فيه حياة أو عمل من حدود الزمن الكلى . والمكان هو البيئة أو المجتمع الذى امتدت فيه تلك الحياة ، وهذا العمل من حدود البيئة العالمية ، فحياة الانسان كغيره من مخلوقات الله تتحدد بزمن معين أيضا ، وفى هذا الزمان المحدد ، وفى تلك البيئة المعينة ، يثمر الحافز فى حياة الفرد عملا تاريخيا ويلج به رحاب التاريخ ، وقد لا يثمر ذلك الحافز مثل ذلك العمل فى زمن آخر أو فى بيئة أخرى .

فالزمان والمكان يلعبان دورهما أيضا وفى غاية البراعة فى تأهيل الفرد للعمل التاريخى ، تلك البراعة التى تضع أصحاب المواهب فى زمن يتفق ومواهبهم تلك ، أوعلى حد تعبير «جيبون» « يجب أن تكون الأزمنة ملائمة للمواهب غير العادية وما علينا إلا أن نتخير شخصية من الشخصيات التاريخية و نقيسها على زمنها ثم نقيسها على زمن آخر ، فلربما لفها ذلك الزمن الآخر فى طوايا

الخمول والنسيان ، وتعنى «ربما» أن ذلك الزمن الآخر قد يكون مواتيا لما ، وهذا فرض لا تصدقه الحقيقة الواقعة كثيراً ، فمن العسير أن تتشابه الظروف فى زمنين متباينين ، ولربما انتهت على هذا القياس عبقرية « كرمويل » أو « خالد بن الوليد » أو « صلاح الدين الأيوبى » إلى ما تنتهى إليه حياة الهمل من الناس ، وتأتى « ربما » أيضاً فى هذا المعنى دلالة على التحفظ ، فليس من العسير أن تثمر عبقرية كرومويل وصلاح الدين الأيوبى وخالد بن الوليد فى ميدان آخر غير الميدان الذى انفردوا فيه بالتفوق والبروز .

التاريخ لا يعيد نفسه :

ومن العبث أن يقال إن التاريخ يكرر نفسه ، أو أن « لا جديد تحت الشمس » ، فلكل زمن طابع يميزه ، وحوافز تتعلق به ولا تتعلق بغيره ، والبيئة أو بلفظ أدق المجتمع يتجدد على الدوام ولا يمكن أن يكون فى حالة ثبات يملى عليه حوافز لا تتغير ، وكثيراً ما تبدو عملية التطور للنظرة العابرة خلقا جديدا فالإنسان هو الإنسان ، ولكن إنسان النيندرتال غير الإنسان الذى يعيش فى عصر الآلة ويخترق أجواز الفضاء ، وقد تكون المفارقة هنا بعيدة فإنسان النيندرتال إنسان غير تاريخى بالمعنى

الذى نقصده من التاريخ ، فإنه أدخل فى تاريخ الأحياء والتطور منه إلى التاريخ الإنسانى ، أو بعبارة أخرى هو إنسان ما قبل التاريخ ، وهو غير الإنسان التاريخى الذى يعنينا فى مضمار العلوم الاجتماعية ، وقد تبدو المفارقة أدق إذا قلنا إن إنسان عصر الأهرامات فى الدولة القديمة غير إنسان الدولة الحديثة فى تاريخ مصر ، أو أن إنسان الأكربول غير إنسان اليونان الحديثة .

والقوى التى سيطرت على الماضى غير القوى التى تسيطر على الحاضر أو المستقبل ، فمهما قيل من أن الطبيعة الانسانية لاتتغير — على الأقل فى كثير من الغرائز والنزعات التى تبدو ثابتة كغرائز الجنس وحب السيطرة والتملك والمقاتلة — إلا أن هذه الغرائز تخضع دائماً للتطور الحضارى للمجتمع .

ومصدر الخطأ فى تلك القالة أن أحداث التاريخ من حيث التعميم تبدو متشابهة ، فالإنسان يسعى إلى منفعة نفسه ، ويخوض فى سبيل ذلك كثيراً من المعارك ، وينزل فى أغلب الأحيان على حكم أوضاع قاهرة تدعوه إلى تأمين حياته ؛ بل إنه لينزل عن كثير من حاجياته وحريته لتأمين وجوده الفردى فى ذاته ، ووجوده الكلى باعتباره عضوا فى جماعة ينتسب إليها ، ويمر فى سبيل ذلك بالعديد من التجارب .

ولكن هذه التجارب الإنسانية التى يمر بها الفرد أو المجتمع لا يمكن أن تتكرر كما يقول « كارل بوبر » فى كتابه — عقم المذهب التاريخى — حتى تحت ظروف متماثلة تماماً ، لأن التكرار يؤدى إلى خلق تجارب جديدة ، ولأن العوامل التى خضعت لها التجربة الأولى تكون قد تغيرت عند تكرار التجربة ، فالتكرار نفسه تجربة جديدة ، ولما كان التكرار يؤدى إلى خلق عادات جديدة ، فإنه بالتالى يؤدى إلى تولد ظروف جديدة مما لا يجوز معه أن نتكلم عن تكرار بالمعنى الدقيق ، ثم إن الفرد يتعلم من التجربة ، فإذا خاض نفس التجربة فى نفس الظروف التى خضعت لها التجربة الأولى بحذافيرها ، فإن عاملا جديداً يتدخل فى الموقف وهو ما تعلمه الفرد من تجربته الأولى .

فالتكرار الحقيقى ممتنع إذن ، ولا يمكن للتاريخ أن يعيد نفسه على نفس المستوى الذى تم عليه فى الماضى ، وعلينا أن نتوقع على الدوام تجارب جديدة فى جوهرها ، وخاصة إذا تولد عن التكرار أحداث تاريخية هامة .

الزمن والحدث التاريخى :

ولذلك فإن سيرة الشخصية التاريخية هى النتاج الحقيقى الرائع

للتفاعل بين الزمان والمكان معاً ، وقد قلنا إن الزمان هو مدى الوقت الذى تمتد فيه حياة أو عمل من حدود الزمن الكلى ، إلا أن الزمن يتفاوت طولا أو قصراً بالنسبة لامتداد حياة الشخصية كما هى بالنسبة للحدث التاريخى ، فالامتداد الزمنى للشخصية التاريخية مساو للامتداد الحقيقى لحياته، حتى إذا اقتصرت أعماله التاريخية على فترة معينة من امتداد عمره ؛ فإننا فى حاجة إلى دراسة الحوافز التى أدت به إلى القيام بدوره التاريخى فى الفترة السابقة من عمره على تلك الفترة التى قام فيها بهذا الدور التاريخى ، وتمدنا نشأته الأولى بذخيرة لا تنضب من الأحداث التى تعيننا على التحليل والاستقراء بحيث نستطيع أن نصل إلى تعليل واضح للدور التاريخى الذى قام به .

ولكل حدث امتداده الزمنى أيضاً ، وتزداد أهمية هذا الحدث كلما ازداد تأثيره فى الحاضر وامتد إلى المستقبل ، وإن لم يكن من عمل المؤرخ أن يمد بصره إلى المستقبل أو يتنبأ بما يمكن أن يحدث ما لم يفسد موضوعية التاريخ ، فضلا عن أنه بذلك التنبؤ بحوادث المستقبل يحول دون وقوعها . وإن كان هذا لا يحول أبداً دون امتداد تأثير الماضى على الحاضر

أو المستقبل ، فإن الحدث التاريخي حتى وإن لم يستكمل حدوده فإنه على الأقل يترك أثراً ما لا نستطيع أن نحدده ولكننا لا ننكر وجوده ، فهل كنا نستطيع أن نقول إن الحرب العالمية الأولى قد تركت أثراً لابد وأن تنتج عنه حرب عالمية ثانية إننا لا نستطيع أن نقول ذلك ، فإن فيه جزماً بوقوع حرب عالمية ثانية ، ولكننا نستطيع أن نقول إن الحرب العالمية الأولى لم تحل المشكلة التي قامت بسببها ، وأنها خلقت أثراً يهدد السلام . هذا ما يمكن لنا أن نقوله ، ولكننا لا نستطيع أن نتنبأ بوقوع تلك الحرب أو تحديد موعدها ، ولكنها حين وقعت أصبح في قدرتنا أن نربط بين الأثر والنتيجة ، ونقول إن أخطاء معاهدة فرساى كانت سبباً في قيام الحرب العالمية الثانية ، هذا لأن الصورة قد تحددت تماماً ، وأصبح من اليسير أن نحكم عليها حكماً تاريخياً على ضوء الواقع الذى حدث فحسب ، لأننا نستطيع أن نقول بعد ذلك إن معاهدة فرساى حتى وإن سادتها روح العدل والتسامح ، ما كانت لتمنع وقوع الحرب ما دامت ألمانيا تتطلع إلى تحقيق مجالها الحيوى على حساب غيرها ، وما كان هذا التسامح إلا معجلا لقيام الحرب لأنها حينذاك تستكمل عدتها للحرب بأسرع مما استكملتها وهى مكبلة بقيود معاهدة فرساى .

والحدث التاريخى يمكن أن يمتد ، ويمتد إلى ما لا نهاية ، ما دامت التجربة القديمة تؤدى إلى تجربة جديدة لا تتبين معالمها قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع نستطيع أن نلحظ الأثر الذى أدى إليها ، والذى يربطها بالتجربة السابقة ، وهذا ما نعبر عنه « بالتماسك التاريخى » ، فالتاريخ يتكون فى الواقع من تلك الجزئيات التى نسمى كلا منها حدثا تاريخيا ، وهذا الجزىء هو الذى يتأتى لنا أن نحدد امتداده الزمنى ، أما الكل فإنه يسبح مع الزمن فى لا نهائية مطلقة ، ومع ذلك فإنه يتحدد بالحاضر الذى نعيشه ، إلا أن انطواء هذا الحاضر يدفعه إلى عالم الماضى ، بينما يمتد الزمن فى حدود التاريخ ويمضى به قدما إلى ما لا نهاية .

فالزمن إذن عامل حاسم فى تحديد الشخصية التاريخية ، وفى تحديد الواقعة التاريخية وتوجيههما على حد سواء .

الفرد والواقعة التاريخية :

ولكن أيهما أجدر باهتمام المؤرخ : أهو العمل أم الشخصية؟ أو بمعنى آخر أهو الواقعة التاريخية أم الفرد ؟

ويحملنا هذا على تحديد ماهية التاريخ ، فالتاريخ كما يقول

« بوركار » هو « تسجيل ما يراه عصر جديرا بالذكر في عصر آخر » .

ومعنى ذلك أن التاريخ يقصر همه على كل ما هو جدير بالذكر من عمل الأفراد والجماعات ، وما كل حدث أو عمل جدير باهتمام التاريخ ، وإنما الجدير بذلك هو الحدث أو العمل الذى يترك أثرا فى الحياة ، وهو ما دعوناه بالأثر التاريخى كما دعونا العمل المؤثر بالحدث التاريخى ، فليس كل عمل أو حدث مما يعد حدثا تاريخيا ، وليس لكل عمل أو حدث من الأثر فى الحياة الإنسانية ما يدعونا إلى تسميته حدثا تاريخيا .

إذن فالحدث التاريخى هو الذى يعنى به التاريخ ، إلا أن هذا الحدث التاريخى هو من عمل الفرد ، هذا الفرد المتميز الذى دعوناه بالشخصية التاريخية . وإذن فالشخصية التاريخية هى التى يجب أن يعنى بها التاريخ ، وبذلك تتوارى أهمية الحدث التاريخى وراء الشخصية التاريخية ، ولكن التاريخ كما نعرف ما هو إلا تسجيل لأحداث تاريخية هو الذى يراها بوركار « جديرة بالذكر فى عصر آخر » أو « هو التدوين القصصى لأحداث العالم كله أو بعضه كما » يقول « هيرنشو » ، وعلى ذلك فإن الحدث التاريخى هو الذى يبرز أهمية الشخصية التاريخية .

فإذا تناولنا سيرة شخصية تاريخية فإنما نتناولها على ضوء الأعمال التى قامت بها ، والتى جعلت منها شخصية متميزة تجذب اهتمام التاريخ من بين الملايين من الشخصيات التى لا يعنى بها ولا يلتفى إليها بالا .

وإذن فالشخصية التاريخية هى المحور الذى تدور حوله أحداث التاريخ ، ولعل هذا هو ماحمل تيلور على ادعاء « أنه يمكن كتابة تاريخ أوربا بالكتابة عن ثلاثة أفذاذ هم نابليون وبسمارك ولينين » وبهذا يحمل التاريخ وقرا لا يحمله .

فالتاريخ لا يمكن أن يكون من صنع فرد وحده مهما أوتى هذا الفرد من هبات العبقرية والنبوغ ، إلا إذا أهملنا عنصرى الزمان والمكان ، فكم من همل ارتدوا مسوح العظماء وساروا يختالون فى لباس الشخصيات التاريخية البارعة ، لأن ظروف الزمان والمكان قد حملتهم إلى القمة دون أن يكون لهم من مواهب الأفذاذ نصيب ، وهو ما أشار إليه « ماركس » بقوله « لقد خلق الصراع الطبقى فى فرنسا ظروفاً يسرت لكثير من غمار الناس أن يعشوا بخيلاء الأبطال وأرديتهم » ، وبالعكس يمكن أن نقول إن نابليون لو جاء فى غير الثورة الفرنسية

لما أصبح امبراطورا ، ولما أتيح له أن يخوض تلك المعارك التى خلدت مجده العسكرى ، وهو افتراض تبدو سخافته للوهلة الأولى ، فإن نابليون لن يكون فى تلك الحالة نابليون الأمبراطور ، ولن يكون قائد المعارك البارع ، وربما جهله التاريخ تماماً ، ولكننا حين نكتب عن الهمل الذين مشوا فى أردية الأبطال ، أو عن الأبطال الحقيقيين ، فإنما نكتب عن شخصيات تاريخية قد قامت بدور فى التاريخ ، وهو دور لا يستطيع التاريخ أن يتجاهله مادام دوره أن يسجل مجرى الأحداث فى العالم كله أو بعضه كما يقول « هيرنشو » ، وكل ما يمكن أن يقوم به المؤرخ متحرراً بعض الشىء من وقر الأحداث ، هو أن يوازن بين تلك الشخصيات التاريخية ويحكم لها أو عليها ، فإنه حينذاك يعطى لنفسه الحق فى أن يعبر عن ذاته فى حكمه على تلك الشخصيات وفقاً لتفكيره ومثله ، فإن كارثة حملة نابليون على روسيا قد تجرده عند بعض المؤرخين من كل مجد عسكرى ، فى حين أنها لدى البعض الآخر لا يمكن أن تحجب عبقريته العسكرية التى أحرز بها انتصار مارنجو وأوسترلتز .

المؤرخ والحدث التاريخي :

ويختلف الحكم على الشخصيات التاريخية من مؤرخ إلى آخر ، ولكن ليس من حق أى مؤرخ أن يتجاهل حقيقة الحدث الذى تم وثبت وقوعه وإن أباح لنفسه بعض الحرية فى التعبير عن ذاته كمؤرخ فى الأحكام التى يوقعها على شخصياته التاريخية ، فالمؤرخ بوصفه فرداً كما يقول « ادوارد كار » هو من نتاج التاريخ والمجتمع ، وعلينا قبل أن ندرس تاريخاً قام به مؤرخ ما ، أن ندرس بيئته التاريخية والاجتماعية ، فعبد الرحمن الرافعى حين كتب تاريخ مصر الحديث ، كان متأثراً ولاريب بعاطفته نحو الحزب الوطنى ، وبإيمانه العميق بزعيميه مصطفى كامل ومحمد فريد ، وما من شك فى أن إيمانه ذلك بنى أساساً على تقدير واع منه للعوامل التاريخية التى مر بها زمنه وبيئته ، وماتركته من أثر بالغ فى تكوين شخصيته ومثله الوطنية ، وعباس العقاد فى كتابته لسيرة سعد زغلول ، لم يتحرر إطلاقاً من تلك العاطفة التى حملها لزعيم ثورة سنة ١٩١٩ ، هذا فضلا عن تأثره العميق بالروح التى سادت عصره وأفكاره التى تكونت نتيجة لهذين العاملين ، عاطفته نحو سعد زغلول ،

ثم الوطنية التى غلبت على زمنه وبيئته . فإذا انتقلنا من سيرته لسعد زغلول إلى عبقرياته نلمس إحساس المؤرخ بالعمل العظيم للشخصية التى يكتب عنها ، فالعمل العظيم هو المحور الذى تدور حواليه أمجاد عبقرياته ، وهذا الإحساس بالعمل العظيم هو السمة المشتركة بين سعد زغلول الذى عرفه وتأثر به عن قرب ، وعبقرياته التى عرفها من صفحات التاريخ ، ولا يصدر العقاد فى اتجاهه هذا إلا عن كوامن ذاته ومقومات شخصيته ، فهو رجل شق طريقه إلى المجد بجهده ونبوغه ، فلا غرو أن كان العمل العظيم لديه سمة شخوصه التاريخية ، والمؤرخ الإنجليزى « هـ . ا . ل فيشر » فى كتابته لتاريخ أوربا قد غلبت عليه روحه التيوتونية العريقة ، فصاغ التاريخ الأوربى بأمجاد التيوتون القدرية المغامرة ، ورسالة الامبراطورية البريطانية المقدسة فى نشر الحضارة والتمدين الأوربى ، وقد عاصر فيشر قمة ماوصلت إليه امبراطورية بلاده من مجد .

فالمؤرخ كفرد ليس إلا ظاهرة اجتماعية أيضا . وهو نتاج المجتمع الذى ينتمى إليه وهو الناطق الشعورى أو اللاشعورى بلسان عصره — كما يقول إدوارد كار — وحين يتابع أحداث الماضى فإنه يتحرك مع موكب التاريخ أينما كان ، ويسخر فكره

ومثله وآراءه فضلا عن جهده فى البحث العلمى لنقل صور الماضى إلى الحاضر ، وهذه الصور هى التى تعنينا من بحثه الشاق ، وقد لا يكون لأفكاره تأثير علينا إلا بقدر ما نجد صداها فى نفوسنا ، وكل ما نبغيه هو أن نصل إلى قاعدة عامة للتدوين التاريخى تتآلف فيها القوى الفردية والاجتماعية التى تخط سير التاريخ ، حتى نتبين الأسس التى تقوم عليها كتابتنا لسيرة شخصية تاريخية ، فمنذ زمن بعيد كان سحر الشخصية التاريخية يطغى على ماعداه من فعل القوى الاجتماعية التى تحدد فى الحقيقة سير التاريخ ، والتى تضفى على الشخصية التاريخية بهاءها ونخارها وهذا ما حمل « تيلور » على القول بأن تاريخ أوربا يمكن كتابته بالكتابة عن نابليون وبسمارك ولينين ، وقد تناسى تيلور أن كلا من هؤلاء يمثل ظاهرة اجتماعية تمثلت أحداث عصرها وأثرت فيها ، أو أن كلا منهم يمثل مرحلة من مراحل التطور الفكرى للقوى الاجتماعية فى عصره ، ومن خطأ القول أن نقول إن كلا منهم — شأنهم فى ذلك شأن أية شخصية تاريخية أخرى — ما هو إلا شخصية مفردة تملى ذاتها على التاريخ ، لأننا إذا قلنا ذلك فإننا نجمد دور الجماعات التى تقف وراء الشخصية التاريخية ، والتى تعبر هذه الشخصية التاريخية

عن إرادتها فعلا بل إن سر عظمتها هو فى قدرتها على التعبير عن تلك الإرادة الجماعية ، أو على حد تعبير هيجل «إن الرجل العظيم هو من يستطيع أن يصوغ فى كلمات إرادة عصره ، وأن يبلغ عصره إرادته ، وأن يعمل على تحقيقها ، ويكون ما يعمله ممثلا لجوهر عصره وما هيته » .

البطل فى التاريخ :

وقدرة الفرد على أن يصوغ إرادة عصره وأن يعبر عنها ويبلغها ويجعلها حقيقة واقعة لهى الجوهر الحقيقى للشخصية التاريخية ، أو للعظمة والبطولة فى مدلولهما التاريخى ، وهما اللفظان السائدان لنعت الشخصيات التاريخية أو بعضها وإن كنا لا نميل إلى استخدامها ، فالشخصية التاريخية أشمل وأعم ، بينما نعت البطولة أو العظمة لا يستحقه غير القلائل من تلك الشخصيات التى يلم بها التاريخ .

وقد لا نختلف كثيرا فى تعريف العظمة فبينما يراها «هيجل» فى القدرة على إدراك إردة العصر والتعبير عنها ، يراها «كارليل» « عقلا يعرف به العظيم حاجة عصره ، وعزما يمضى به فى إبلاغ العصر إرادته » ، ويراها « ليفيس » عندما يصف عظماء

الكتاب « بأنهم القادون على خلق وعى إنسانى » ولا يشذ « إدوارد كار » عن ذلك حين يصف الرجل العظيم « بأنه يمثل شيئا على الدوام ، فهو إما يمثل القوى القائمة فعلا أو القوى التى يساعد على خلقها » .

فإذا أردنا بالشخصية التاريخية من تتصف بتلك النعوت جميعا فإننا إما أن ننعت كل شخصية دخلت التاريخ بالبطولة والعظمة ، وإما أن نقصر تلك النعوت على من يستحقونها ونجرد غيرهم منها ، فلا نرى فى حشد التاريخ غير عمالقة وأقزام وهم جميعا على المسرح شخوص قائمة وإن اختلفت هالات النور التى تشع من حولهم .

وهنا يتحتم علينا فى كتابة السير التاريخية أن نختار من تلك الشخوص ألمعها وأبهاها ، أو بمعنى أدق تلك الشخوص التى حوت معانى العظمة وكان لها تأثير فعل فى عصرها يحملنا كمؤرخين على الاهتمام بها .

فإذا اخترنا سيرة نكتب عنها فإن اختيارنا لها يقوم على تقدير واع منا للدور التاريخى لصاحبها ، وهذا التقدير فى عرف المؤرخ هو فى إحساسه بالأثر الإنسانى الفعال لمن يكتب سيرته .

وهنا تختلف مراتب العظمة ويختلف حكمنا عليها ، فمن العظماء من صعدوا إلى العظمة على ظهر قوى قائمة فعلا ، كخوفو

وهانيبال وقيصر وجنكيزخان ونابليون وبسمارك ، ومنهم من نالها عن طريق القوى التي يعمل على خلقها مما يحمله كثيرا على تحدى السلطة القائمة ، كالأنبياء وأصحاب الرسالات والمفكرين والثوار ، ومنهم من اتصف بها لأنه بذ غيره فى موهبة من المواهب الإنسانية كالمخترعين والشعراء والعلماء والكتاب .

وهنا نختلف أيضا فى تقديرنا للعظمة ، فأى هؤلاء أحق بإجلال التاريخ وتقديره ؟

فإذا كان للتاريخ أن يحكم على أقدار شخوصه ، وهذا هو بحق جوهر الدراسات التاريخية ، أو جوهر علم التاريخ ، فإن أعباء المؤرخ تتضاعف وتثقل مسئوليته أمام الضمير الإنسانى ، « فالتاريخ عليه أن يحررنا — كما يقول « لورد اكتون » — لا من التأثير غير المناسب للأزمنة الأخرى فحسب ، بل من التأثير غير المناسب لزمننا أيضاً ، حتى من طغيان البيئة وثقل الهواء الذى تتنسمه » ، بل إن عليه أكثر من هذا أن يحس إحساساً عظيما عميقا باختلاف الأزمنة والأمكنة فى الماضى وفى الحاضر وبين الماضى والحاضر أيضاً ، والمؤرخ حين يحلق فى أجواء سامقة من التسامح والعدالة ، فإنه يحرر نفسه من أثقال البيئة ومن وقر الزمان والمكان ، ويرتفع بنفسه

فوق ذروة عالية يطل منها على أحداث التاريخ فلا ينشد منها غير الحقيقة ، ولا يبغى من ورائها غير الخير والجمال .

وفى هذا يبدو المؤرخ متطورا مع الزمان والمكان ، بل إن عليه فى هذا أن يحرر نفسه من كل تأثير لا يلائم الكمال الذى تنشده الإنسانية ، فلا يشده مكانه ولا يشده زمانه شدا يقع فيه أسير التأثير غير المناسب لزمانه ومكانه فيتردى فى حمأة التحيز غير المنصف لأحداث التاريخ ، ولا يستطيع أن يقوم برسالته السامية فى تحرير الإنسانية من جمودها وتعصبها .

وفى تقدير المؤرخ للدور الذى يلعبه البطل فى التاريخ حكم صريح على مكانة هذا البطل بين مراتب العظماء ، وحين يتحرر المؤرخ من التأثير غير المناسب لزمانه ومكانه يكون تقديره لعظمة البطل تقديرا منصفا .

وقد يرى المؤرخ أن دوره ليس هو الحكم على الأحداث والأبطال ، وإنما دوره أن يدون الأحداث ولا يعرض لها بتحليل يصل به إلى إدراك طبيعة الأحداث والحكم عليها ، وحين يقف المؤرخ عند هذا الحد ، يفقدنا القدرة على تحرير أنفسنا من التأثير غير المناسب للزمان والمكان ، فإن قدرة

الإنسان على التسامى فوق موقفه التاريخى لا تكتمل مالم يكتمل إحساسه بالموقف التاريخى .

وحين يكتمل إحساس المؤرخ بالموقف التاريخى يستطيع أن يرى من العظماء من هو أحق بإجلال التاريخ من غيره وفى هذا يتمايز الحكم على أبطال التاريخ وفقا لإحساس المؤرخ بأحداث التاريخ .

المؤرخ كالبطل ظاهرة اجتماعية :

وقد تجرد المؤرخ بهذا من فرديته ، إلا أن المؤرخ كغيره من الناس ليس فردا بقدر ما هو ظاهرة اجتماعية ، وفى كلا الحالين عليه أن يتحرر من نوازع فرديته ومن ضغط مجتمعه حتى يتكامل إحساسه بالموقف التاريخى ، فإذا اكتمل إحساس المؤرخ بالموقف التاريخى فإنه يستطيع أن يصنع من كتابة السير تاريخا طيبا ، فالسير التى تنظر إلى الإنسان باعتباره فردا تصنع فى العادة تاريخا رديئا ففيها ينفعل المؤرخ بشخصية صاحب السيرة أكثر من انفعاله بالموقف التاريخى الذى يحيط بها أو ينجم عنها ، وفى هذا يقرر «لورد أكتون» قاعدة تاريخية هامة حين يقول « ليس هناك فى نظرة الإنسان للتاريخ ما هو

أكثر جورا وإيغالا فى الخطا من الشغف المنبعث عن الشخصيات الفردية » ، وهو نفس الخطأ الذى نقع فيه حين نرى فى الموقف التاريخى سلوكا فرديا ، فمهما تبهرنا عظمة الفرد لا نستطيع أن ننكر تلك القوى الاجتماعية التى تقف وراءه ، حتى ونحن نكتب عن دور الثائر فى التاريخ فإنه قد يوحى بأن هناك تباينا بين الفرد والمجتمع ، ولا نذهب فى الرد على هذا مذهب « إدوارد كار » حين ينكر التجانس الاجتماعى ويرى المجتمع حلبة للمشاحنات الاجتماعية يعبر عن بعضها الثائر أو المنشق كما يحب أن يسميه ، بل نقول إن المجتمع قد يحس شيئاً ما ولكن الخوف الاجتماعى يحول بين الأفراد وبين التعبير عما فى أذهانهم ، حتى يقوم الثائر فيواجه موجة النفاق الاجتماعى ويقف منه المجتمع موقفا مضادا بدافع الخوف من العواقب والحذر من مواجهة المجهول ، ولكن سرعان ما يؤكد الثائر بإصراره صدقه فى التعبير عن الخلجات الكامنة فى نفوس الأفراد ونزعات المجتمع اللاشعورية ، وحينذاك تتحطم غريزة الخوف عند بعض الأفراد فيشايعون الثائر ، وتغدو ثورته ظاهرة اجتماعية لنزعات مجتمعه ، وقد لا تتم الثورة فى جيله وإنما تدركها الأجيال اللاحقة ، وهى التى تعى عظمته فيخلع

التاريخ عليه أردية الخلود ويضفى عليه بهاه وأمجاده .

وقد تتبع السيرة أسلوب الأدب حين تعطينا رواية تاريخية تضفى على البطل كل أردية المجد والعظمة ، وتبعث فى نفس القارىء من الشوق والشغف مالا تبعثه السيرة التاريخية ، ولكن التاريخ لا يكتب قصة بقدر ما يكتب بحثا ، فالتاريخ هو البحث فى ماضى الإنسان بصفته ظاهرة اجتماعية ، أو بمعنى أدق البحث فى ماضى الإنسان فى المجتمع .

ومهما كان شغف المؤرخ بسير العظماء فإن شغفه بها ينبعث فى الحقيقة من التأثير المتبادل بين العظيم وبيئته ، سواء كان هذا التأثير فى جيله أو فى الأجيال اللاحقة لجيله ، ففى كل مجتمع يوجد القائد والرائد والثائر ، كما توجد الجموع التى تشارك العظيم مكانته التاريخية .

وأرانى بعد هذا الاستطراد فى حاجة إلى تحديد الإطار العام لكتابة سيرة تاريخية فأعود مرة أخرى إلى صلة الأدب بالتاريخ ، ولا أحب أن أكرر ما قلته من قبل ، وإنما أود أن أؤكد حاجة المؤرخ إلى بلاغة الإنشاء وروعة الأسلوب الذى يصل بالتعبير الساحر الخلاب إلى أصدق صور الموقف التاريخى ، ولن يصل المؤرخ إلى غايته ما لم تواته القدرة على الوصف

والرواية مع دقة التعبير وسلامة الأسلوب وطلاوته ، ولعل هذا هو مبعث الخلط بين الفن والعلم فى التاريخ ، فالتاريخ كمبحث علم وإن اختلف عن العلم التجريبى فى طرائقه وموضوعه والتاريخ فى كتابته فن يحتاج كما قلنا إلى منتهى براعة الكاتب النحرير حتى يبرز فى الإطار اللائق به . ثم إن المؤرخ فى كتابته للتاريخ يحس بالتفاعل المستمر بينه وبين وقائعه ، وهو إحساس لا يدركه عالم الرياضيات أو العلوم الطبيعية الذى يتصف بالحياد الجاف فى تجاربه ، فإذا تجرد المؤرخ من إحساسه بوقائعه والانفعال بها ، فقلما يؤمن بها ، ومن ثم لا يدرك — كما يقول « ح . م ترفليان » — هذا الانفعال فى غيره أبدا .

ولعل انفعال كاتب السيرة بسيرة من يكتب عنهم هو أقوى صور الانفعال التاريخى ، ولذلك فإن السيرة كثيرا ما تقترب من سمت الأدب كما يقترب كاتبها من سمت الأديب . ولعل هذا هو سبب القول « فى أن السيرة تكتب تاريخا رديئا » .

وإذا كان الشغف المنبعث عن الشخصيات التاريخية — كما يقول « لورد اكتون » — مما يجور على نظرة الإنسان للتاريخ ، فان براعة كاتب السيرة وحياده هما اللذان يجنبانه هذا الجور ، ولست أرى لذلك سببا إلا انفعال المؤرخ بشخصية

صاحب السيرة أكثر من انفعاله بالأحداث التى أحاطت به ، والتى تمت على يديه ، ثم الحكم على الأثر التاريخى الناجم عنها بعيدا عن الهالة التى تحيط به فى زمنه والتى تبقى مشعة إلى أزمنة أخرى لا حقه ، ولا أحب أن أجرد المؤرخ من الإحساس الذاتى الذى يحسه نحو البطل الذى يتمثله ،ولكن يجب ألا يطغى هذا الإحساس على الحقيقة المجردة ، فقلما ، يكتب المؤرخ سيرة دون أن ينفعل بهذا الإحساس الذاتى نحو شخوصه التى يكتب عنها ، وغالبا ما يكون هذا الإحساس منبعثا عن الإعجاب بالبطل الذى يكتب سيرته . وقد اختار كارليل أبطال تراجمه من بين الشخصيات التاريخية التى بهرته ، بل إن عنوان كتابه « الأبطال » ليحمل كل سمات الإكبار لتراجمه ، وما كان يرى التاريخ كما يقول إلا سيرة عظماء الرجال ، ولعله حين راح يبحث عن صور العظمة لم يتمثلها إلا فى صورة بطل ، واختار من هؤلاء الأبطال من أوفى على قمة البطولة كما تصورها .

وبتعدد أبطال كارليل تتعدد صور البطولة فهذا البطل الإله كما رآه فى «أودين» رب الأرباب عند الفايكنج ، وهذا البطل الرسول كما رآه فى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا البطل الشاعر كما رآه فى دانتى وشكسبير ، وهذا البطل القسيس كما رآه

فى لوثر قسيس البروتستانتية ونوكس قسيس المتطهرين (البيوريتان) ، وهذا البطل فى صورة كاتب كما رآه فى جونسون وروسو وبارنز ، وهذا البطل فى صورة ملك كما رآه فى كرمويل ونابليون ، ولم يكتب كارليل فى « أبطاله » تاريخا بديعا وصادقا فحسب ، بل كتب سيرا رائعة ، فلم تبهره شخصية البطل قدر ما بهرته أعمال البطل ، وكانت أعمال البطل وما تركته هذه الأعمال من أثر تاريخى وحيه فيما أضفاه من إكبار وإعظام على أبطاله .

فالسيرة يمكن أن تصنع تاريخا جيدا إذا استطاع المؤرخ أن يزن التأثير المتبادل بين البطل والمجتمع الذى يعيش فيه ، وأن ينفعل بالأثر التاريخى كما ينفعل بشخصية البطل وأعماله ، وبقدر ما يكون إحساس كاتب السيرة بالزمان والمكان يكون انفعاله بالبطل وأعماله .

وقد لا يكون الانفعال سارا ، وإن كان من العسير أن نحكم على نوع الانفعال الذى تثيره السيرة فى كاتبها ، إذ قلما يتناول المؤرخ سيرة لا تثير إعجابه ، أو تبعث الراحة إلى نفسه ، إلا أن هذا يرجع بدوره إلى العوامل النفسية التى تحرك المؤرخ ، فمن المؤرخين من تستثيره شخصية البطل المغامر أو الغازى الفاتح ،

ومنهم من تستثيره شخصية البطل فى صورة إنسان ، أو تستثيره عبقرية العالم ومثابرته حين يضنى الليالى فى الكشف عن قانون يطور العلم ويدفعه قدما إلى الأمام ، أو المخترع الذى يقدم للإنسانية اختراعا يعود عليها بالنفع ، ولقد قيل مرة إن الطبيب المجهول الذى اخترع الجبيرة أكرم على الإنسانية من كل من حفل بهم التاريخ من الغزاة والفاتحين .

ولهذا تتعدد السير بتعدد اللون المحبب منها للمؤرخ وتتعدد الأحكام التاريخية تبعا لذلك ، والقارىء وحده هو الحكم فيما يقرأ وفيما يستهويه من تلك السير ، ولكن التاريخ يستوفى حاجته فى كل حالة من تلك الحالات إذ يقصر همه على كل ما هو جدير بالذكر من ماضى الإنسان شرا كان أم خيرا .

وإذ كنا لا نحب أن نجرد المؤرخ من الإحساس الذاتى نحو شخوصه ، فلأننا لا نتشيع لإحساسه إلا بقدر ما يتجاوب مع إحساسنا نحن أنفسنا ، وحين يقترب إحساس المؤرخ من إحساسنا أو إحساس الجماعة من الناس نقول إنه قد تجرد من الذاتية إلى الموضوعية وكتب تاريخاً جيداً ، ولا أعنى بذلك أن التاريخ يعبر دائماً عن إحساس الأفراد أو الجماعات « فالتاريخ لا يخوض معارك — كما يقول ماركس — ولا يصنع شيئاً وإنما ينقل لنا

موقفاً تاريخياً يصوره المؤرخ فننفعل به ، ولا يملك من إحساسنا قدر ما يملك من عقولنا ، فنحن لا نحس التاريخ بعواطفنا كما نحس الأدب وإنما ندركه بعقولنا فنحكم له أو عليه ، فإذا استثار عواطفنا فإن انفعالنا به لا يخلق تلك الآثار الدرامية التي ترقى بالإنسان إلى ذورة النقاء أو التطهر كما يرى أرسطو ، وإنما يخلق لدينا لوناً من الإحساس الحقيقي بالموقف التاريخي ، ويكون الانفعال المنبعث عنه انفعالا يحدده الزمان والمكان بالنسبة لهذا الموقف التاريخي منا ، فقد تستثير معركة « هيستنجز » ألواناً من المشاعر في نفس الإنجليزي لا تستثيرها في نفس المصري أو الفرنسي ولا ريب أن معركة المارن في الحرب العالمية الأولى تستثير مشاعر متباينة عند الألمان والفرنسيين ، والموقف التاريخي واحد لا يتغير في كل حالة ، « فالرأي حر والوقائع مقدسة » كما يؤثر عن الصحفي الإنجليزي « س . ب . سكوت ».

الحدث والموقف التاريخي :

وحين نتحرى الموقف التاريخي في السيرة أو في حياة البطل فيكشف لنا عن نواحي تفرده وتميزه ، فإننا نبرز الإطار العام الذي تتحرك السيرة في حدوده أو تتحرك بين زواياه أهمية البطل .

والذى يحدد الموقف التاريخى هو الحدث أو العمل أو الواقعة التاريخية ، والسيرة كالتاريخ هى سلسلة من الأحداث أو الأعمال أو الوقائع التاريخية ولكن ما كل عمل يكون واقعة تاريخية ، وحين نتكلم عن الحدث أوالعمل أوالواقعة من وجهة نظر التاريخ فإنما نعنى تلك الأحداث أو الأعمال أو الوقائع التى تكون العمود الفقرى للتاريخ ، فعبور هانيبال لجبال الألب واقعة تاريخية ، بينما لا يثير عبور جبال الألب بقصد النزهة أو التسلق اهتماماً تاريخياً ، وحين قال خالد بن الوليد وهو على فراش الموت « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع إلا وفيه طعنة أو ضربة وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » أصبح قوله تاريخياً » ولكن ليس كل ما يقوله الناس مما يعنى التاريخ حفظه ، وقد لا يعنينا متى تناول قيصر عشاءه أو غذاءه ولكن يعنينا ماذا قال قيصر فى مجلس الشيوخ .

فالواقعة التاريخية هى التى تخلق الموقف التاريخى ، وحين تنتقى الواقعة فلابد لنا أن نتحلى بالدقة ، والدقة فى التاريخ واجبة وليست فضيلة ، فمن المهم أن نعرف متى كانت معركة « عين جالوت » وفى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار انتحرت

كليوباترا ، مع أنه لا يمر يوم إلا وتقع فيه حوادث انتحار كثيرة ، ولكن انتحار كليوباترة يكون واقعة تاريخية وهذا الانتحار قد خلق بالتالى موقفاً تاريخياً انتهى به طور من أطوار التاريخ المصرى ، وبدأ طور جديد أصبحت مصر المستقلة فيه إيالة رومانية . وتحديد الساعة التى انتحرت فيها الملكة المصرية تحديداً دقيقاً هو الذى يحدد لنا بداية هذا الطور الجديد فى تاريخ مصر وإن حددته بعد ذلك المراسيم والقرارات ، فالمراسيم والقرارات لا تعبر حينذاك إلا عن أمر واقع هو النتيجة الطبيعية لانتصار أوكتافيوس وانتحار كليوباترا ونهاية حكم البطالمة .

وتكيف الواقعة التاريخية فى السيرة تفرد البطل بصفات وسمات معينة قد لا نراها فى سير التاريخ العام حين ننتقل من الحديث عن صفات الفرد إلى طبائع المجتمع الإنسانى . فالفرد وإن كان جزءاً من المجتمع الإنسانى الذى ينتمى إليه إلا أنه ينفرد بصفات قد لا نراها فى بيئته ، أو أنها على الأقل تختفى وراء الطابع العام للجماعة ولكن الفرد هو الذى يعبر عنها صراحة ويجعلها حقيقة واضحة جلية .

فإذا ذهبنا مذهب السيكلوجيين فى تحليل مشكلات المجتمع وردها إلى سلوك الفرد ، فإن السمات التى تستهديها الوقائع

التاريخية فى حياة بطل السيرة قد تهدينا إلى تحليل سلوكه ومن ثم تهدينا إلى النوازع اللاشعورية التى تكيف حوافزه ونزعاته ، ولكننا لا نحب أن نذهب بعيداً مع أصحاب النزعة السيكلوجية فى تحليل الأحداث التاريخية ويغرينا بهذا فشل السيكلوجيين فى دراسة البيئة الاجتماعية للفرد ، ولا نحب أن نضرب فى مجاهل التخمينات مفترضين أنها تقودنا إلى تعليل ما للحوافز والنزعات التى تكيف الموقف التاريخى ، فالذى يكيف الموقف التاريخى فى ذهن المؤرخ هو الحدث التاريخى الذى ثبت وقوعه وليست تلك التخمينات التى تضرب فى أستار مجهولة .

وقد يهدينا علم الاجتماع إلى ماعجز عنه علم النفس ، فالتاريخ هو البحث فى ماضى الإنسان فى المجتمع وليس البحث فى الدوافع الشعورية لسلوك الأفراد فى المجتمع ، حتى وإن عنى التاريخ بتقصى الحوافز الفردية لقيام الناس بأفعالهم وفقاً لتقديرهم ، فالحوافز التى يتقصاها التاريخ فى سلوك الأفراد هى حوافز شعورية وليست حوافز لا شعورية ، ومهما قيل فى قيمة هذه الحوافز اللاشعورية وقدرتها على تحديد سلوك الأفراد ، فإننا لانستدل عليها إلا من تفسيرنا لسلوك الفرد الواعى أو مايقع

منه فعلا ، ولكن إذا أردنا تحليل الحوافز اللاشعورية فإننا نتلمس تفسيرها مما وقع منه فعلا ، فإذا عرفنا ماوقع فعلا فإنه وحده هو الذى يهم التاريخ ، أما تفسيره فلا يعنيه كثيراً بقدر ماتعنيه الآثار التى ترتبت على تلك الأفعال ، أو بمعنى أوضح لايعنينا من الواقعة التاريخية إلا أنها وقعت فعلا ، وأنها أدت إلى نتائج معينة ، فإذا أردنا تفسيرها فإنما نفسرها على ضوء ما وقع فعلا وماترتب على وقوعها من نتائج ، وفيه يتجلى الحافز الواعى بتحديد الأسباب التى قادت إليها ويختفى اللاواعى تحت أستار الطبيعة الفردية .

والحدث التاريخى ليس واقعة فردية تمت فى عزلة عن المجتمع ، وإنما هو نتاج تأثير متبادل بين الفرد والمجتمع ، وقد يكون نجاح البطل فى التاريخ لأنه قادر على المواءمة بين نفسه وبين مجتمعه أو بين ظروف الزمان والمكان ، وفى هذا قد يتنكر تماماً لحوافزه اللاواعية ويتكون لديه حافز حقيقى هو الذى يعبر به عن عصره ويجعله حقيقة واقعة .

وكثيراً ما نقف حائرين أمام انحراف بعض الأحداث التاريخية عن سيرها العام فنذهب مذاهب شتى فى تفسير أسباب ذلك ، فيقال إن الإنسان منفذ غير واع لإرادة الله ويقال

« اليد الخفية » كما يرى « آدم سميث » ، ومكر العقل كما يرى « هيجل » فى تفسير القوى التى تدفع الإنسان للعمل من أجلها ولأجل غاياتها وإن ظن أنه يعبر عن ذاته ويحقق رغباته ، وفى « الحرب والسلام » لتولستوى مايشبه هذا التعليل حين يقرر أن الإنسان يعيش واعياً لنفسه ، ولكنه أداة لا واعية لتحقيق الغايات التاريخية ، وكل هذا هراء ، فالأحداث التاريخية لا تحكمها إرادة الإنسان أو رغبة الجماعات فحسب ، وإنما يؤثر فيها ماضى الإنسان كما تتأثر بعديد من العوامل المتنافرة والمتسقة التى تتحكم فى طبيعة المجتمع الإنسانى ، والتى تفوق فى الغالب إرادة الإنسان وإن كانت من صنعه ومن نتاج تفكيره ، والإنسان لايعيش فى عزلة مطلقة ينمحى فيها الفعل ورد الفعل للإرادة الجماعية ، وإنما يعيش فى زمن يتأثر بظروفه ، وفى مكان يتحكم فى إرادته ، ويحيا حياة اجتماعية يتصل فيها الأفراد بعضهم ببعض ، وفى ظل هذا الاتصال الذى تحكمه طبيعة الجماعات تتنوع إرادة الأفراد ويتطور سلوكهم وغاياتهم يوماً بعد الآخر ، والانحراف فى بعض الأحداث التاريخية هو انحراف فى بعض طبيعة الأفراد والجماعات أيضاً . ولكن الفرد لا يدرك هذا الانحراف ولا يحسه فى وقته ،

كما لا يحس بالآثار التى تترتب على تقدم السن فى صاحبه إلا إذا انفصل عنه زمناً ، فيرى مدى التغير الذى ألم به فى السنوات التى انفصل عنه فيها ، فالمشاهدة اليومية والاتصال المستمر بالأحداث يخفى عوامل التغير الدائبة المستمرة فى طبيعة الفرد وفى طبيعة المجتمع .

فالحافز الذى نعنيه فى حياة صاحب السيرة هو الحافز الواعى الذى يعبر عن إرادة سافرة ، وهو الذى يحرك العبقريات والمواهب ، ويهىء للحدث التاريخى ويكيفه ، ولكن هذا الحافز كما قلنا لا ينشأ فى فراغ وإنما هو تعبير صادق لإرادة العصر وطبيعة المجتمع وإلا ما ترك أثراً فى التاريخ .

ولكل سيرة امتدادها الزمنى ، وفى هذا الامتداد تتحرك الوقائع التاريخية للبطل ، فإذا كانت الوقائع هى التى تبرز الإطار العام الذى تتحرك السيرة فى حدوده ، فإن امتدادها الزمنى هو الذى يحدد سعة هذا الإطار من حيث الزمن ، وإن كانت الوقائع هى التى تحدد امتدادها التاريخى ، فالامتداد الزمنى للسيرة هو العمر الذى عاشه صاحبها من مولده إلى مماته ، أما امتدادها التاريخى فهو الزمن الذى تمتد خلاله وقائعها التاريخية ، وقد يتسع هذا الامتداد التاريخى إلى ما بعد العمر الزمنى لصاحب السيرة طالما

ظلت وقائعه التاريخية مؤثرة على مدى الأجيال والأزمان ، فالامتداد التاريخي لسيرة محمد وعيسى « عليهما السلام» باق ما بقي الإسلام وما بقيت المسيحية ، والامتداد التاريخي لسيرة شكسبير باق ما بقي تأثير شعره ومسرحه ملهماً للنفس الإنسانية ، والامتداد التاريخي لسيرة جيمس وات مكتشف البخار باق ما بقي البخار قوة محركة ، والامتداد التاريخي لسيرة ماركس باق ما بقيت الشيوعية قائمة ، فإذا اندثرت وكفر الناس بها فإن امتدادها يقف عند حدود الزمن الذى تأثر بها ، وتصبح بعد ذلك حدثاً تاريخياً من ذكريات الماضى ، وإن بقيت تعين على جلاء الحاضر وتفسيره كما هو القصد من أى بحث تاريخى .

ولكل سيرة مكانها الذى درجت فيه ، وفيه تتحدد حوافز صاحبها وتتجلى مواهبه ، وقد لاتثمر حوافزه ومواهبه فى مكان آخر ، وهنا كما قلنا يبرز التأثير المتبادل بين البطل وبيئته ، ومن المسلم به أن البيئة والمجتمع عاملان هامان فى الكشف عن البطل وإبراز مواهبه وإبراز عظمته وتحديد مكانته فى التاريخ فلو أن « تشرشل » كان فى أحد دول أمريكا اللاتينية أو بلد من بلدان آسيا المستعمرة ، لما كان تشرشل الذى ارتبط تاريخه بتاريخ الامبراطورية البريطانية ، وربما لم يكن تشرشل على الإطلاق ،

ولو أن غاندى كان فى انجلترا فلربما لم يكن غاندى على الإطلاق ولربما جهله التاريخ جهلا تاماً .

ولكن هناك من العظماء من تتعدى عظمته حدود الزمان والمكان كالأنبياء والرسل وأصحاب الرسالات الإنسانية وهؤلاء تنشق الإنسانية عطرهم على طول المدى .

السيرة قصة إنسانية كما هى تاريخية :

وفى كتابتنا للسيرة علينا أن نستهدى تلك الحقائق ، فالسيرة قصة إنسانية ، وهى تاريخ حق يمثل أبرع فنون الكتابة التاريخية وهى امتداد لحياة عظيم فى زمان ومكان معينين ، ويمتد الزمن بها إلى ما وراء جيلها ، ثم إنها تمثل مواقف تاريخية لها حوافزها ومراميها ، ووراءها تكمن عبقرية مواتية ومواهب تضفى على الموقف التاريخى طابعاً معينا .

والسيرة كالتاريخ لا تتكرر ولا تعيد نفسها أبداً وإن تشابهت بعض السير كما تتشابه بعض المواقف التاريخية ، إلا أنها لا يمكن أن تتكرر بنفس السمت والأسلوب ؛ بل إنها لتفوق التاريخ فى هذا ، وبقدر ماتختلف أشكال الإنسان وصوره بقدر

ما تختلف السير حتى وإن عملت فى ميدان واحد من ميادين الحياة وفى زمان ومكان واحدين .

وفى كتابة السير يجب أن تتم كتابتها عن صاحبها تماماً كما يتم الحدث التاريخى عن الموقف التاريخى الذى يلابسه وإلا جاءت باهتة . لا نرى بينها وبين غيرها اختلافاً أو تمايزاً ، كأن نصف إنساناً بأنه يتكلم ويمشى على رجلين وله يدان وعينان من تلك الصفات التى يشترك فيها الناس جميعاً ، فإذا قلنا إنه يعرج أو إن له يداً فيها أربعة أصابع لا خمسة ، أو إن فى نطقه لثغة أو ينطق القاف كافاً أو فوق الحاجب من وجهه ندبة فإننا بذلك نميزه عن غيره ، وكلما دقت وجوه الاختلاف والتمايز كان الوصف دقيقاً للدلالة على صاحبه .

وهكذا فى كتابة السيرة نبحث عن السمات المميزة لصاحبها فى ميدان التفوق والبروز والتى تطغى على ما عداها من السمات الأخرى ، وهى تلك السمات التى تكون شخصيته التاريخية وتفرد له مكانا معينا بين أقرانه فى التاريخ .

والسيرة أكثر نبضا بالحياة من التاريخ ؛ ففيها نلمس الإنسان مباشرة ، أما فى التاريخ فإننا نلمس الإنسان عن طريق الأحداث التاريخية التى أحاطت به ، فمهما قيل من أن الإنسان هو المؤثر

فى عملية التاريخ ، فإن المجتمع هو الذى يبرز التأثير التاريخى للفرد ويتفاعل معه ، وهنا نتخذ من الأحداث محورا للتاريخ ، أما فى السيرة فإننا نتخذ من الإنسان الفرد محورا نؤلف حواليه الأحداث التى أحاطت به والتى وقعت منه مباشرة .

وعلى مؤرخ السيرة أن يتفاعل مع أبطال سيره وأن يقترب منهم قربا شديدا ، ولن يقترب منهم مالم تكن ثقافته ممثلة للناحية التى برزوا فيها ، فلن يكتب سيرة « شوقى » غير أديب أوشاعر يحس تلك الروعة التى يضوع بها شعره ، ولن يكتب عن « روميل » غير كاتب يلم بفنون الحرب وأساليب القتال ، ولن يكتب سيرة « هيمنجواى » غير ناقد قصاص .

ومن الخطأ أن نقيم تلك الحواجز الصلدة بين كتاب التاريخ فقد اعتدنا أن ندرج مؤرخى الأدب بين الأدباء ، ومؤرخى المعارك بين العسكريين ، ومؤرخى الفن بين الفنانين وهم فى نظر الواقع التاريخى مؤرخون يبحثون فى ماضى الإنسان وتاريخه .

ومصدر الخطأ فى هذا أننا لا نعد التاريخ إلا التاريخ السياسى ولكن التاريخ معناه الحق هو تاريخ الإنسان ، الإنسان الذى يعيش فى مجتمع ويتفاعل معه ويتأثر به ويؤثر فيه فى شتى مجالات نشاطه من سياسة وأدب وعلم وفن وحرب واقتصاد إلخ .

وقد يختص المؤرخ بناحية من نواحى التاريخ فيقصر جهده على دراستها والإلمام بها كالتأريخ للفن أو الاقتصاد أو الحرب أو السياسة مبتعداً بذلك عن دائرة التاريخ العام ، ولكن هذا لا يخرجه من زمرة المؤرخين كما لا يخرج من زمرة العلماء العالم المختص بالكيمياء أو الفيزياء .

والتاريخ للسير لون من ألوان البحث التاريخى ، ولكن للسير ألوانها كما للتاريخ صنوفه ، وكلما كان بطل السيرة أقرب إلى مزاج المؤرخ وإلى ميدان بحوثه تجلت قدرة المؤرخ فى إبراز سيرته وتصويرها . وكلما اتسع أفق المؤرخ واتسعت آفاق معرفته كلما كان أقدر على كتابة العديد من ألوان السير .

والتاريخ يعد سيرة طويلة المدى تمتد مع الزمن إلى مالانهاية وتغوص فى أعماق الماضى إلى أبعد مما أتاحت لنا المدونات أن نعرف ، هو سيرة الإنسان فى زمانه ومكانه ومع الزمان والمكان إلى حيث يقف بنا الزمن من مداه وهو يغذ السير إلى مستقبل لا يعلمه غير الله ؟

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها :

١	— الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢	— الاشتراكية والشيوعية ...	للأستاذ على أدهم
٣	— الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي	للدكتور عبد الحميد يونس
٤	— قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥	— طب وسحر	للدكتور بول غليونجى
٦	— فجر القصة	للأستاذ يحيي حقى
٧	— الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨	— رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩	— أعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠	— الشرق والإسلام	للأستاذ عبد الرحمن صدقى

١١ — المريخ ... ... للدكتور جمال الدين الفندى والدكتور محمود خيرى

١٢ — فن الشعر ... ... للدكتور محمد مندور

١٣ — الاقتصاد السياسى ... ... للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق

١٤ — الصحافة المصرية... ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزة

١٥ — التخطيط القومى ... ... للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... ... للدكتور ثروت عكاشة

١٧ — اشتراكية بلدنا ... ... للأستاذ عبد المنعم الصاوى

١٨ — طريق الغد ... ... للأستاذ حسن عباس زكى

١٩ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى للدكتور محمد يوسف موسى

٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف

٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر ... للأستاذ محمد صبيح

٢٢ — قصة الذرة ... ... للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع

٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه للدكتور أحمد احمد بدوى

٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى

٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد

٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور أحمد سويلم العمرى

٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى

٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ — الثورة العرابية ... ... الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ — فنون التصوير المعاصر ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ — الرسول فى بيته ... ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٣٣ — أعلام الصحابة « المجاهدون » للأستاذ محمد خالد
٣٤ — الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ — اخناتون ... ... للدكتور عبد المنعم ابو بكر
٣٦ — الذرة فى خدمة الزراعة ... للدكتور محمود يوسف الشواربى
٣٧ — الفضاء الكونى ... ... للدكتور جمال الدين الفندى
٣٨ — طاغور شاعر الحب والسلام للدكتور شكرى محمد عياد
٣٩ — قضية الجلاء عن مصر ... ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٤٠ — الخضروات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج
٤١ — العدالة الاجتماعية ... ... للمستشار عبد الرحمن نصير
٤٢ — السينما والمجتمع ... ... للأستاذ محمد حلمى سليمان
٤٣ — العرب والحضارة الأوربية ... للأستاد محمد مفيد الشوباشى
٤٤ — الأسرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد العزيز صالح
٤٥ — صراع على أرض الميعاد ... للأستاذ محمد عطا
٤٦ — رواد الوعى الإنسانى ... للدكتور عثمان أمين
٤٧ — من الذرة إلى الطاقة ... ... للدكتور جمال نوح
٤٨ — اضواء على قاع البحر ... للدكتور أنور عبد العليم

٤٩ — الأزياء الشعبية ... ... للاستاذ سعد الخادم

٥٠ — حركات التسلل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوى

٥١ — الفلك والحياة ... { للدكتور عبد الحميد سماحة والدكتور عدلى سلامة }

٥٢ — نظرات فى أدبنا المعاصر ... للدكتور زكى المحاسنى

٥٣ — النيل الخالد ... ... للدكتور محمد محمود الصياد

٥٤ — قصة التفسير ... ... للأستاذ احمد الشرباصى

٥٥ — القرآن وعلم النفس ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة

٥٦ — جامع السلطان حسن وما حوله للأستاذ حسن عبد الوهاب

٥٧ — الأسرة فى المجتمع العربى بين الشريعة الإسلامية والقانون { للأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوى

٥٨ — بلاد النوبة ... ... للدكتور عبد المنعم ابو بكر

٥٩ — غزو الفضاء ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى

٦٠ — الشعر الشعبي العربى ... ... للدكتور حسين نصار

٦١ — التصوير الإسلامى ومدارسه للدكتور جمال محمد محرز

٦٢ — الميكروبات والحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح

٦٣ — عالم الأفلاك ... ... للدكتور إمام إبراهيم احمد

٦٤ — انتصار مصر فى رشيد ... للدكتور عبد العزيز رفاعى

٦٥ — الثورة الاشتراكية « قضايا ومناقشات » { للأستاذ احمد بهاء الدين

٦٦ — الميثاق الوطنى قضايا ومناقشات للأستاذ لطفى الخولى

٦٧ — عالم الطير فى مصر ... ... للأستاذ احمد محمد عبد الخالق

٦٨ — قصة كوكب ... ... للدكتور محمد يوسف موسى

٦٩ — الفلسفة الإسلامية ... ... للدكتور احمد فؤاد الأهوانى
٧٠ — القاهرة القديمة واحياؤها ... للدكتورة سعاد ماهر
٧١ — الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء } للأستاذ محرم كمال
٧٢ — قرطبة فى التاريخ الإسلامى } للأستاذ محمد محمد صبح والدكتور جودة هلال
٧٣ — الوطن فى الأدب العربى ... للأستاذ إبراهيم الإبيارى
٧٤ — فلسفة الجمال ... ... للدكتورة اميرة حلمى مطر
٧٥ — البحر الأحمر والاستعمار ... للدكتور جلال يحيى
٧٦ — دورات الحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح
٧٧ — الإسلام والمسلمون فى القارة الأمريكية } للدكتور محمد يوسف الشواربى
٧٨ — الصحافة والمجتمع ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزة
٧٩ — الوراثة ... ... للدكتور عبد الحافظ حلمى
٨٠ — الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٨١ — ساعات حرجة فى حياة الرسول للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٨٢ — صور من الحياة ... ... للدكتور مصطفى عبد العزيز
٨٣ — حياد فلسفى ... ... للدكتور يحيى هويدى
٨٤ — سلوك الحيوان ... ... للدكتور احمد حماد الحسينى
٨٥ — ايام فى الإسلام ... ... للأستاذ احمد الشرباصى
٨٦ — تعمير الصحارى ... ... للدكتور عز الدين فراج
٨٧ — سكان الكواكب ... ... للدكتور إمام إبراهيم احمد
٨٨ — العرب والتتار ... ... للدكتور إبراهيم احمد العدوى
٨٩ — قصة المعادن الثمينة ... ... للدكتور انور عبد الواحد

٩٠ — اضواء على المجتمع العربى ... للدكتور صلاح الدين عبد الوهاب
٩١ — قصر الحمراء ... ... للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٩٢ — الصراع الأدبى بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب
٩٣ — حرب الإنسان ضد الجوع وسوء التغذية ... ... للدكتور محمد عبد الله العربى
٩٤ — ثروتنا المعدنية ... ... للدكتور محمد فهيم
٩٥ — تصويرنا الشعبي خلال العصور للأستاذ سعد الخادم
٩٦ — منشآتنا المائية عبر التاريخ للأستاذ عبد الرحمن عبد التواب
٩٧ — الشمس والحياة ... ... للدكتور محمود خيرى على
٩٨ — الفنون والقومية العربية ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٩٩ — اقلام ثائرة ... ... للأستاذ حسن الشيخ
١٠٠ — قصة الحياة ونشأتها على الأرض للدكتور انور عبد العليم
١٠١ — اضواء على السير الشعبية ... للأستاذ فاروق خورشيد
١٠٢ — طبائع النحل ... ... للدكتور محمد رشاد الطوبى
١٠٣ — النقود العربية «ماضيها وحاضرها» للدكتور عبد الرحمن فهمى
١٠٤ — جوائز الأدب العالمية «مثال من جائزة نوبل» للأستاذ عباس محمود العقاد
١٠٥ — الغذاء فيه الداء وفيه الدواء للأستاذ حسن عبد السلام
١٠٦ — القصة العربية القديمة ... ... للأستاذ محمد مفيد الشوباشى
١٠٧ — القنبلة النافعة ... ... للدكتور محمد فتحى عبد الوهاب
١٠٨ — الأحجار الكريمة فى الفن والتاريخ للدكتور عبد الرحمن زكى
١٠٩ — الغلاف الهوائى ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى

١١٠	الأدب والحياة فى المجتمع المصرى المعاصر	للدكتور ماهر حسن فهمى
١١١	ألوان من الفن الشعبى ...	للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف
١١٢	الفطريات والحياة	للدكتور عبد المحسن صالح
١١٣	السد العالى « التنمية الاقتصادية »	للدكتور يوسف أبو الحجاج
١١٤	الشعر بين الجمود والتطور ...	للأستاذ العوضى الوكيل
١١٥	التفرقة العنصرية	للدكتور أحمد سويلم العمرى
١١٦	صراع مع الميكروب ...	للدكتور محمد رشاد الطوبى
١١٧	الإصلاح الزراعى والميثاق ...	للأستاذ محمد عبد المجيد مرعى
١١٨	أضواء جديدة على الحروب الصليبية	للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
١١٩	الأمم المتحدة وممارسة نظامها	للدكتور سليمان محمود سليمان
١٢٠	اسرار المخلوقات المضيئة ...	للدكتور عبد المحسن صالح
١٢١	التاريخ والسير	للدكتور حسين فوزى النجار

الثمن قرشان